الشباب الجامعي بين الزَّمنيْن الأكاديمي والافتراضي وإمكانات التحكُّم

نهوند القادري عيسى

مقدّمة عامّة

كان طرح لجنة كِتاب باحثات لموضوع الزَّمن وأسئلته الملحَّة في عصرنا الراهن، المتّسم بالتحوّلات المُتسارعة، مناسبة لي لإرضاء فضولٍ بحثيٍّ لطالما كان يراودني، ويتمثّل في الاطّلاع عن كثب على تمثّلات الشباب الجامعي من أبناء الجيل الرقمي لزمنهم؛ كيف يديرونه؟ وهل يسهُلُ عليهم التحكُّم به وهُم يعيشون ظروفاً معيشيّة ضاغطة محكومة بالتباعد الآخذ في التزايد بين الزَّمن الإعلامي والزَّمن الواقعي، بين الزَّمن الاتّصالي والزَّمن الأكاديمي؟ ولعلّ الدافع وراء فضولي هذا انكشف أمامي بوضوح لحظة صوغ اللّجنة مسودّة مشروع الكِتاب المَنوي عرضه على الباحثين/ ات بهدف استكتابهم/ ن. إذ تَبَيَّنَ لي كم كان هذا الفضول يخفي جملة أسئلة مؤرقة تعتمل في ذهني منذ سنوات، كطرف في العملية التعليمية، منبعها إشكالية تُمثِّل البُنية الأكاديمية التقليدية لزمنها، وفي ما إذا كان هناك من إمكانية لإدارة جديدة للزَّمن الأكاديمي بما يتناسب والتطوّرات التكنولوجية والاتّصالية المُتسارعة، من دون المسّ بجوهر العملية التعليمية، بموازاة ما شهدناه وما نشهده من تحوّلات مُتسارعة على مستوى إدارة الزَّمن الإعلامي والاتّصالي الذي يعيش أبناء هذا الجيل في خضمّه طَوعاً أو قَسراً.

وبما أنّ الكلام يدور حول بُنية أكاديمية تقليدية لها معاييرها ومنطقها، وبناؤها وتجهيزاتها وعاملوها، ودورتها الزَّمنية، ومواقيتها، ومكانها، وماضيها وحاضرها ومستقبلها، وسياقاتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والاتّصالية، وبما أنّ لكلّ مجموعة زمانها، ولكلّ مكان زمانه، ولكلّ بيئة زمانها، فإنّ صعوبةَ دراسة زمنيّة هذه البُنية المعقّدة ككلٍّ متكاملٍ في هذه العجالة تبدو واضحةً للعيان. لذا سوف أكتفي بالتمثيل عليها بطرفَي العملية التربوية: الطالب والأستاذ، لكون كلٍّ من هذَين الطرفَين ينتمي إلى فئة عمرية مختلفة بعض الشيء في المنشأ والظروف، وبالتالي تختلف في وعي زمنها وفي تصوّرها عنه وفي إدارتها لمواقيته. وبدا لي أنّ مُقاربة هذا الموضوع من منطلق العلاقة الوثيقة بين الزَّمن والسرد، لَأَمرٌ مناسب. إذ اعتبر بول ريكور (Paul Ricoeur) أنّ السرد حارسٌ للزَّمن، (لا زمن إلّا ما هو مَروي). بالنسبة إليه القصّة لديها وظيفة مزدوجة في العصر الحديث، فهي جزء من الحياة اليومية، وهي لا تفرض على الأفراد أدواراً وقرارات وتُحدّد سلوكات فقط، إنّما لديها أيضاً وظيفة أسطورية تتمثّل بتدعيم معتقدات المجموعة وتطمين الأفراد على المستوى الأنطولوجي[1].

بناءً على ما تقدَّم وضعتُ خطّتي البحثية المتمثّلة في أن أَدَعَ عيّنة من الطلّاب الجامعيّين المأخوذين بالزَّمن الاتّصالي والإعلامي، الغارقين في لُجَّتِهِ السريعة والملحّة والآنية، يسردون زمنهم، وأنا كأستاذة وظيفتي تتمثّل في تحفيزهم على البحث والتقصّي. لا تعنيني السرعة، إنّما الذي يعنيني هو الالتزام في الأوقات المحدَّدة. سوف أسرد ملاحظاتي حول الفروقات بين زمني وزمنهم، بغية قراءة زمن الطّرفَين لنرى ما إذا كان هناك من إمكانية للتلاقي بين طرفَي العملية التعليمية في منتصف الطريق، وبالتالي إمكانيّة صوغ زمننا الأكاديمي بطريقة متجدّدة تتناسب وظروف المرحلة التي نعيش، بمعزل عن محدِّدات البُنية عينها وسياقاتها المحيطة. بخصوص الطلاب، وقعتُ بدايةً في حيرة من أمري كيف لي أن أقرأ زمنهم؟ حاولت متسرّعة إجراء حلقة نقاش مركّز مع مجموعة من طلّاب السنة الأولى (اختصاص إعلام وعلاقات عامّة)، ممّن يرتادون الشبكات الرقمية بكثافة، طارحةً عليهم أسئلة حول الزَّمن لم تكن في واردهم ولا مُدرَجة في وعيهم، وكان أن تعثَّرت هذه المحاولة، بالنَّظر إلى عنصر المفاجأة في موضوعٍ لم يكُن في حسبانهم، ولا وقت لديهم للتفكير فيه، حتّى وإن كان يقع في صلب

(1) Marc Lits, «Temps et médias: un vieux couple dans des habits neufs». *Recherches en communication*, numéro 3 (1995), in sites-test.uclouvain.be, ibooks, p.52-53

اختصاصهم. خرجتُ من تلك المحاولة المتعثّرة، إنّما المعبِّرة، بالتساؤل: كيف لمَن يتخصّص في الإعلام أن يضع نفسه خارج الزَّمن، وأن يكون غير قادر على تمثّله، أو غير واعٍ له؟ فنحن إذا كنّا لا نبني هويّتنا السردية إلّا بفضل الهيكلة الزَّمنية التي تؤمّنها لنا سردِيّة الإعلام حول ما يحصل في العالَم، فلماذا لا نتساءل عن الطريقة التي تُنظِّم فيها الأنساق الإعلامية علاقتنا بالواقع؟ ألا نلعب مع الزَّمن عندما نقرأ جريدة أو نشاهد تلفازاً أو نتصفّح موقعاً إلكترونياً أو نرتاد شبكات رقمية؟ فنحن من خلال تعرّضنا لهذه الوسائط نكتشف ليس ما يحصل من أحداث فقط، إنما نكتشف الروايات عن الأحداث والقصص المؤَعلَمة المُدرَجة ليس في الزَّمن فقط، إنّما أيضاً في زمن القرّاء والمُشاهدين والمُستمعين، والمُتصفّحين[2]. فالفترات الإعلامية القائمة على ثُنائية الحضور والغياب، والتكرار العنيد يجعلنا نلعب في الزَّمن ومع الزَّمن، تماماً كالطفل الصغير اللّاعب مع البكرة في مشهدٍ هنا وهناك (fort/da) الذي اعتبره فرويد (Freud) يلعب في الزَّمن ومعه من خلال إدراج لعبته في زمن الحضور/ الغياب[3].

أحالني فشل هذه المحاولة إلى فرضية ميشال بيكار (Michel Picard) التي مفادها أن الزَّمن يكمن في فعل القراءة وليس في النصّ. بالنسبة إليه، من المستحيل الكلام على الزَّمن في موضوع النصّ من دون الخروج منه، ومن دون التدخّل في جعله آنيّاً. وذهب أبعد من ذلك عندما اعتبر أنّ الزَّمن الخيالي ليس زمناً، بل تمثلات للزمن، فالمشاركة الفعَّالة عبر القراءة واللّعبة الأدبية توصل إلى تحويل الزَّمن احتمالياً إلى تجربة معيشة.[4] لذلك غيَّرتُ من خطّتي البحثية وقرّرتُ توزيع استبيانٍ تمهيديٍّ على مجموعة مكوّنة من 55 طالباً جامعياً من الماستر – بحثي في علوم الإعلام، تتراوح أعمارهم بين 21 و30 عاماً، غالبيّتهم من الإناث بنسبة 75٪، مقابل 25٪ ذكور، وغالبيّتهم تنتمي إلى الفئة الاجتماعية الوسطى بنسبة 90٪، 25٪ منهم متزوجون، وهُم ناشطون اقتصادياً بنسبة 41٪، يتوزّعون على مَن يقوم بأعمالٍ ذات صلة بالاختصاص بنسبة 69٪، ومَن يقوم بأعمال حرّة بنسبة 19٪، ومن ثمّ 8٪ موظفون، و4٪ يمارسون أعمالاً اجتماعية وسياسية. يسكن 85٪ من الطلّاب المُستجوبين مع أسرهم، و9٪ مع زملائهم، و6 ٪ منفردين.

انبنى هذا الاستبيان المُطَوَّلُ، الذي استَحضرَ الزَّمن أمام مجموعة طلّاب وطالبات،

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

على أسئلة افترضت ضمناً أنّ هذا الجيل من الشباب الجامعي الذي يحيا زمن المنظومة الإعلامية والاتّصالية الراهنة المتّسمة بالسرعة والآنية والمباشرة، يعيش زمناً مغايراً للزَّمن الأكاديمي التقليدي، وللزَّمن الاجتماعي المحيط به على أرض الواقع، وهذا ما يَدَعُهُ في حيرة من أمره، يعيش ازدواجية تُسَبِّبُ له إرباكاً وضياعاً وقلقاً، ومتعة وارتياحاً في الوقت عينه، وتدفعه إمّا للبحث عن صيغةٍ توافقيةٍ ما تنقذه من هذه الحالة، أو الانزواء في الماضي، أو الانسلاخ عن الواقع، والذوبان كلّياً في الزَّمن الاتّصالي الراهن، وخصوصاً أنّ تسريع زمن الميديا ما كان ليتحقَّق لو بقي مقتصراً على زمن الإنتاج، ولو لم يشمل زمن التلقّي أو الاستهلاك بما فيه التفاعلية. في هذا الصدد الْتَقطَ إيتالو كالفينو (Italo Calvino) روحيّة العصر، المُشكَّلة من المحفّزات الستّة المُسيطرة وهي: الخفّة – والسرعة – والدقّة – والظهور – والتنوع – والتوازن، «مثنياً بذلك على دقة اللعبة مع الزَّمن التي يسمح بها الأدب، بخاصة في القصص القصيرة، غير أنه تَصَوَّرَ بالوقت عينه، «لعبة تقلصات الزَّمن»، التي تُشَكِّلُ من ناحية، إحدى قوى النصّ الخيالي، ومن ناحية ثانية، إحد مخاطر ثقافة الصورة الإعلامية، والتي بنظره، تجعلنا نعيش تحت سيلٍ غير منقطع من الصور. فالميديا لا تَكُفُّ عن تحويل العالَم إلى صُور تُضاعفها لعبة المرايا المُخادعة. تفرض هذه الصُّور الغنيّة بالمعنى الافتراضي، نفسها على المشاهد، ويتحلّل جزء كبير منها مباشرة، كالأحلام التي لا تترك أيّ أثر على الذاكرة، ولا يبقى منها سوى الشعور بالغرابة وبالضيق[5]. كذلك افترضت الأسئلة أنّ ضغط السرعة على الطلاّب غَيَّرَ من علاقتهم بالمعرفة وأربك علاقتهم بالزَّمن الأكاديمي البطيء، والملتزم بالمِهل المحدَّدة. تبعاً لملاحظات كالفينو المُقتربة من طروحات ريجيس دوبريه(Regis Debray) التي تجد أنّ ضغط الزَّمن الذي أزال المسافات بين القارّات وقصَّر مُهَلَ الاختراع، غَيَّرَ علاقتنا بالثقافة وباستهلاك موضوعات المعرفة[6]. كذلك أشار بول فيريليو (Paul Virilio) إلى أنّ التسريع والمباشرة في الاتّصال يمكن أن يُوَلِّدَ جموداً ساطعاً للمجتمعات والأفراد. كذلك رأى عالِم الاجتماع الألماني هارثموت روزا (Hartmut Rosa) أنّ التسريع، الذي يتمّ في ثلاث دوائر غير مُتزامِنة: التجديد التقني، والتغيير الاجتماعي، وإيقاع الحياة، يترك الفرد بانطباع نقصان الوقت، ويَدَعُ المؤسّسات غير قادرة على اللّحاق بالإيقاع السريع[7].

(5) Ibid.

(6) Ibid.

(7) Sous la direction de Normand Baillargeon, *Mutations de l'univers médiatique*, (Quebec : M éditeur, 2014), p.66.

وقبل الخوض في إجابات الطلّاب والطالبات، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ردود فعلهم على الاستبيان بشكل عامّ كانت معبِّرة. إذ تلاقوا على القول، إنّه على الرّغم من طول الاستبيان، إلّا أنّه حرَّك تفكيرهم، ووضعهم أمام حقيقة واقعهم، وجعلهم يتنبّهون لممارسات كثيرة كانوا يقومون بها من دون تفكير بمعانيها. بما معناه أنّ هذا الاستبيان استدرجهم لِيَعُوا لعبة الزَّمن، وهذا ما تبيَّن لاحقاً في كلامهم أثناء إجراء حلقة النقاش المُرَكَّز مع مجموعة مصغَّرة منهم. بالإجمال حملت أجوبتهم المؤشّرات أدناه.

I- في سرد الطلاب الجامعيّين لزمنهم

أ. الغالبيّة تبحر في الإنترنت بشكلٍ دائم، وفي أيّ وقت[8]

الرسم رقم 1

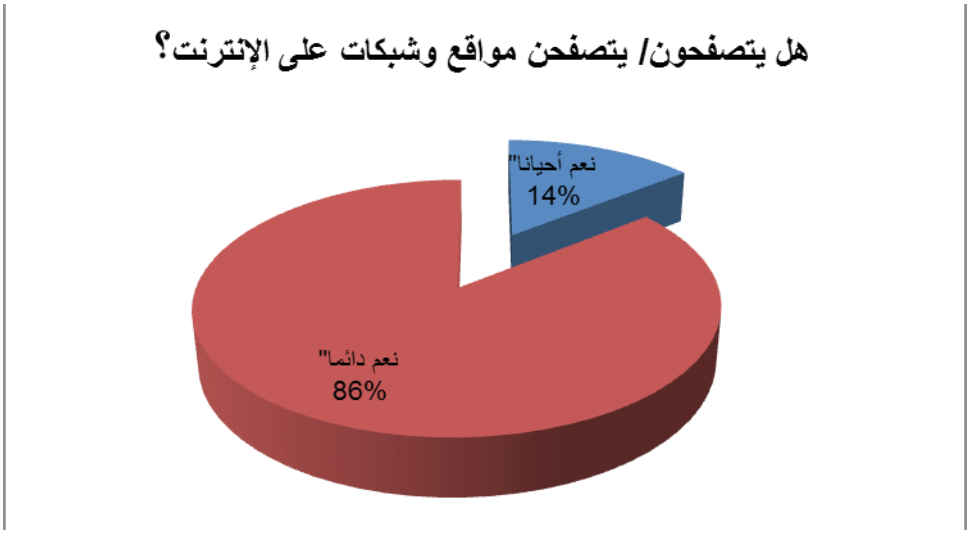

(8) توزّعت الشبكات التي يرتادها أفراد العيّنة على: مواقع التواصل الاجتماعي – مواقع إخبارية – جميع المواقع – عدّة مواقع – وكالات أنباء – مواقع المكتبات – المواقع الفنّية الأكاديمية – مواقع صحّية – مواقع سياسية – مجلّات ثقافية إلكترونية – الصّحف – الصفحات العلميّة – منتديات – المواقع الإلكترونية الموثوقة – فيديوهات للأطفال – المجلّات – مواقع ترفيهية وتثقيفية – لا يوجد موقع محدّد – مصادر بحثية.

الرسم رقم 2

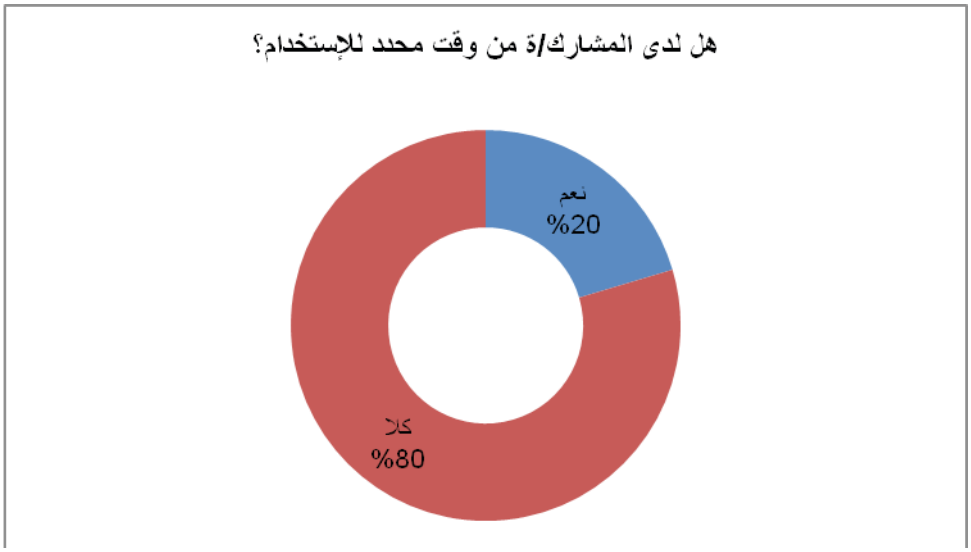

ب. أسباب التصفّح تعود بالدرجة الأولى إلى البحث عن مصادر المعلومات، يليها مصادر الأخبار ثمّ التسلية.

الرسم رقم 3

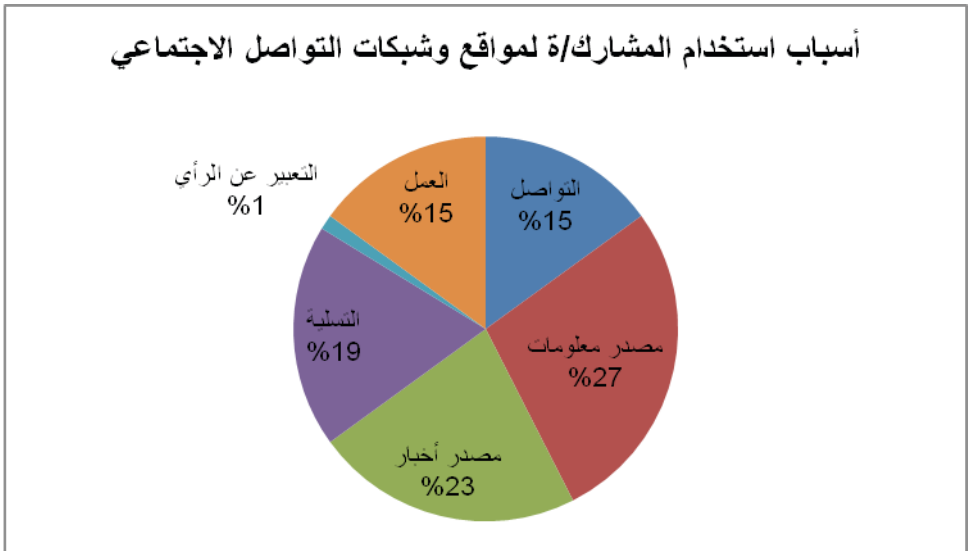

ج- الغالبية صرَّحت أنّ تصفّحها يستغرق الساعتَين، وفي فترة المساء. في المقابل، فإنّ نسبة 85٪ تتصفّح المواقع أثناء القيام بأعمال أخرى على التوالي (مشاهدة التلفاز، تناول الطعام، العمل)، بالاعتماد بالدرجة الأولى على التلفون الذكي.

الرسم رقم 4

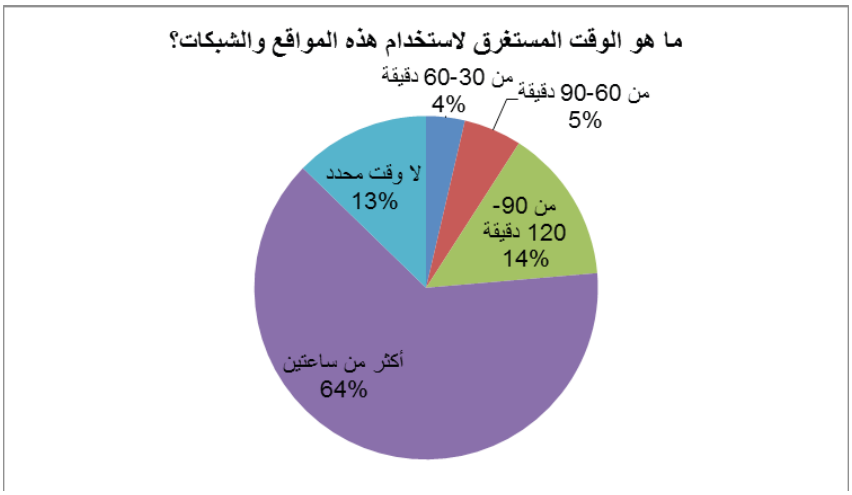

الرسم رقم 5

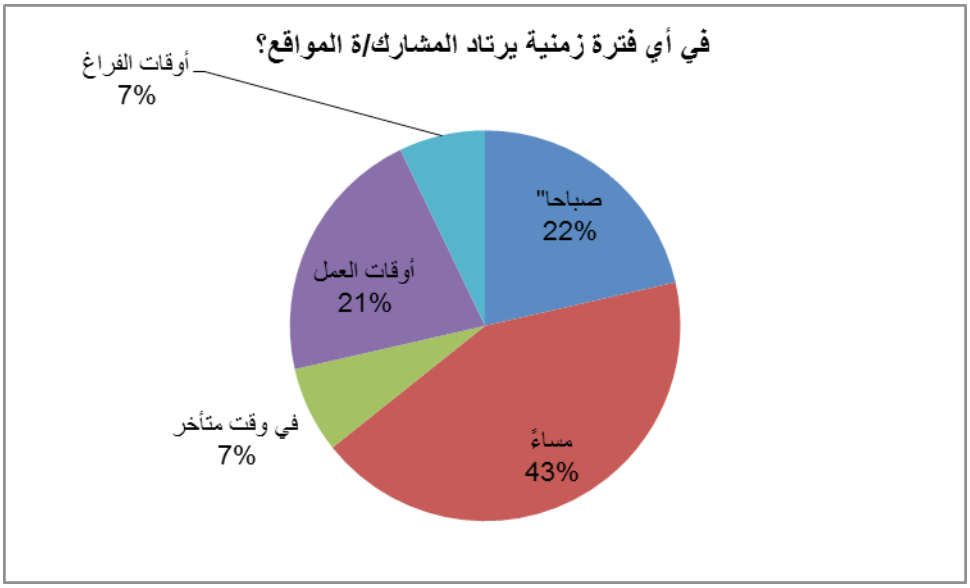

الرسم رقم 6

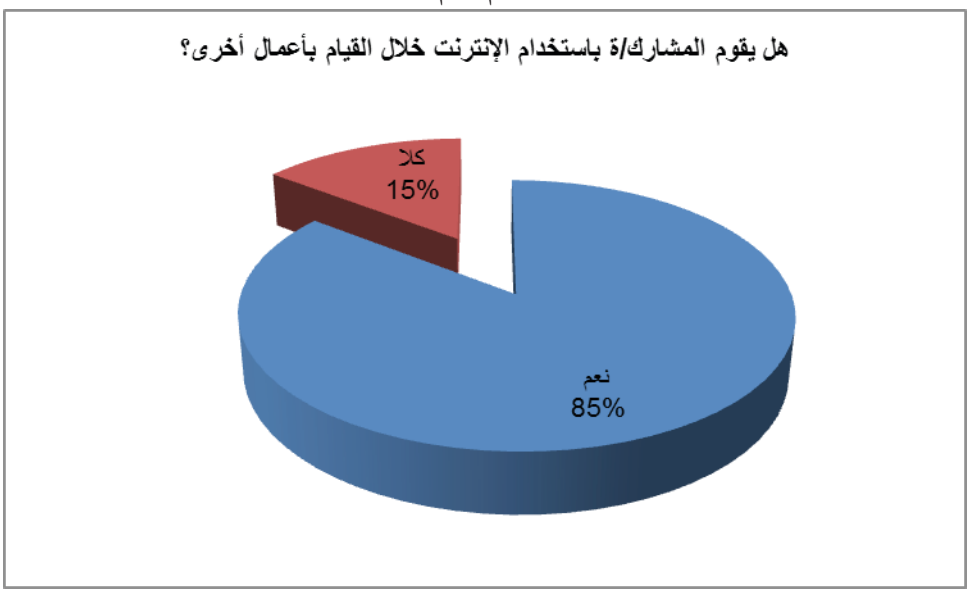

الرسم رقم 7

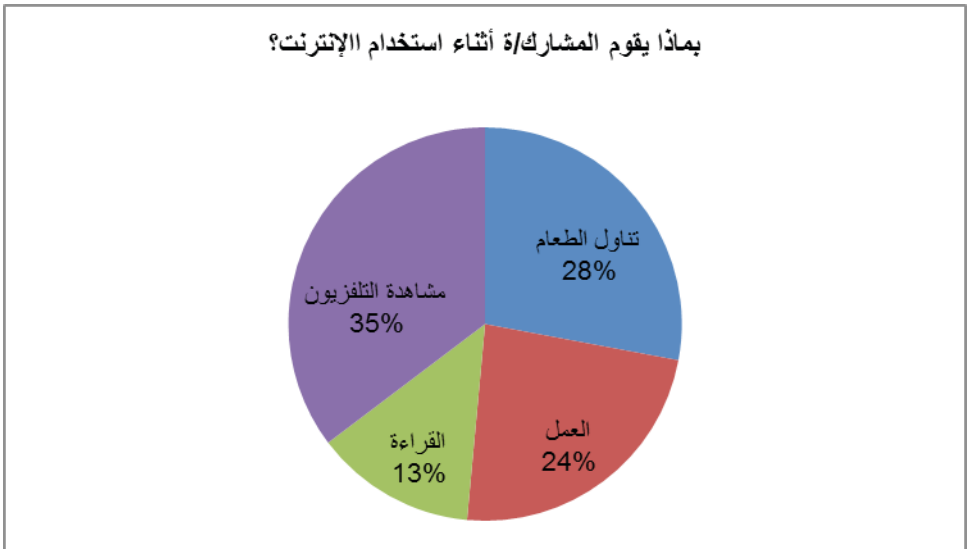

الرسم رقم 8

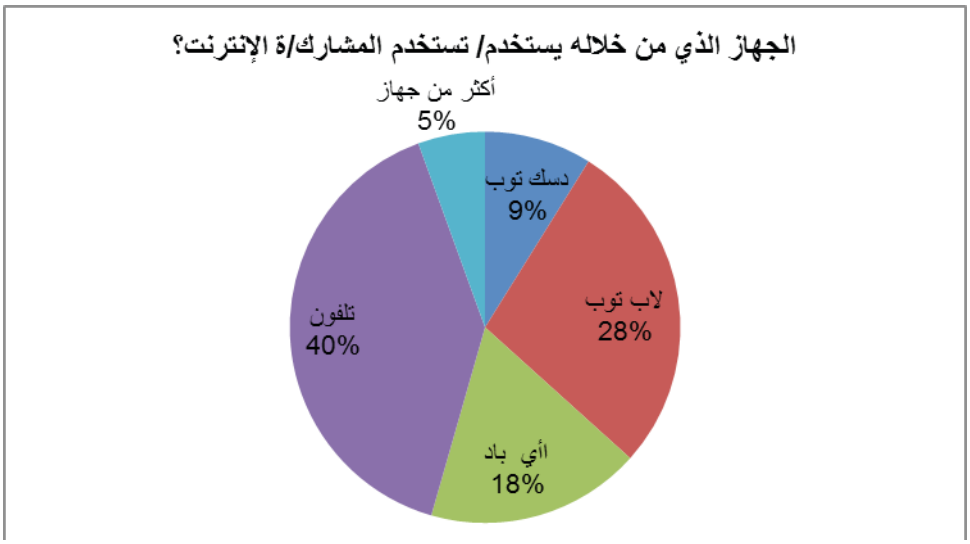

د- أكثر من النصف راودتهم فكرة التوقّف عن استخدام النت، وذلك لتجنّب هدر الوقت بالدرجة الأولى/ الغالبيّة تجد مفاعيل سلبيّة لتعطّل الشبكات تتمثّل على التوالي: في الشعور بالغضب، والعزلة، والفراغ، والملل / مقابل مفاعيل إيجابيّة تمثّلت في عدم الاكتراث والشعور بالارتياح.

الرسم رقم 9

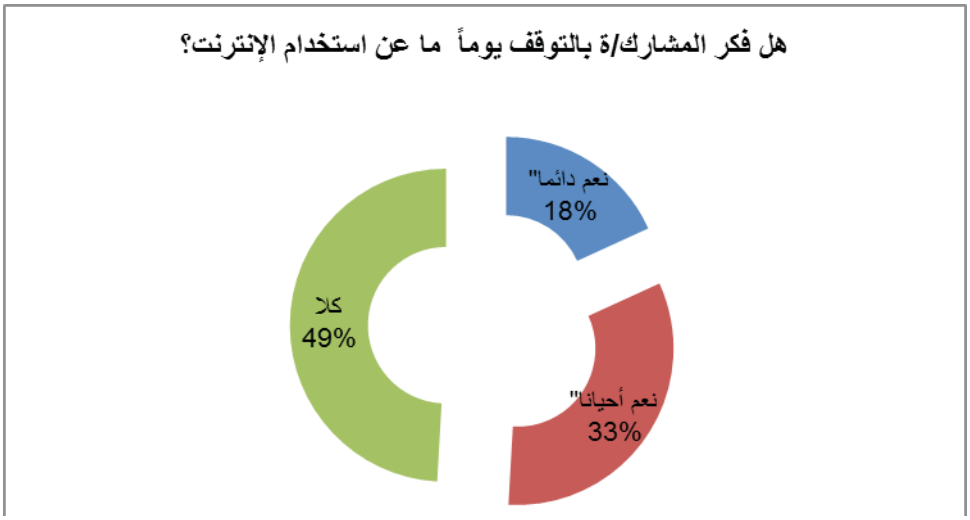

الرسم رقم 10

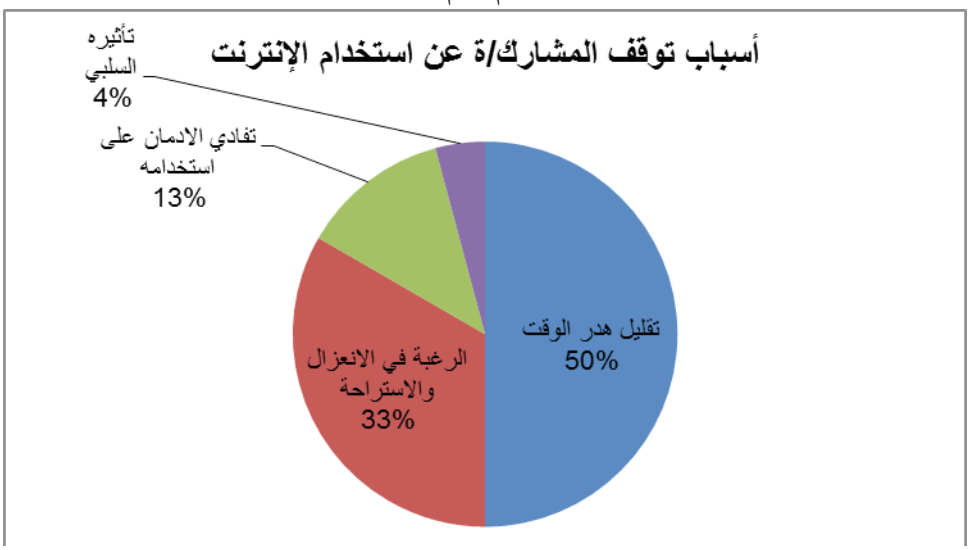

في حال تعطّلت الشبكات، صرّحت نسبة 61٪ من العيّنة أنّها لا تفعل شيئاً، ونسبة 14٪ تحاول القيام بنشاطات أخرى، و14٪ تلجأ إلى الوسائل التقليدية و11٪ تحاول إصلاحها. ونسبة من لا يكترث بذلك بلغت 31٪، والذين يغضبون 21٪، ومن يشعرون بالعزلة 18٪، وبالفراغ 12٪، وبالارتياح 10٪ وبالملل 8٪.

ه- الغالبية وجدت أنّ استخدام النت ينعكس إيجاباً على أدائها الأكاديمي باعتبارها مصدراً للمعلومات / وسلباً على أجواء الأسرة، لأنّها تتسبَّب في عزلة أفرادها، وعلى العلاقات الاجتماعية لأنها تَحُدُّ من التلاقي على أرض الواقع.

الرسم رقم 11

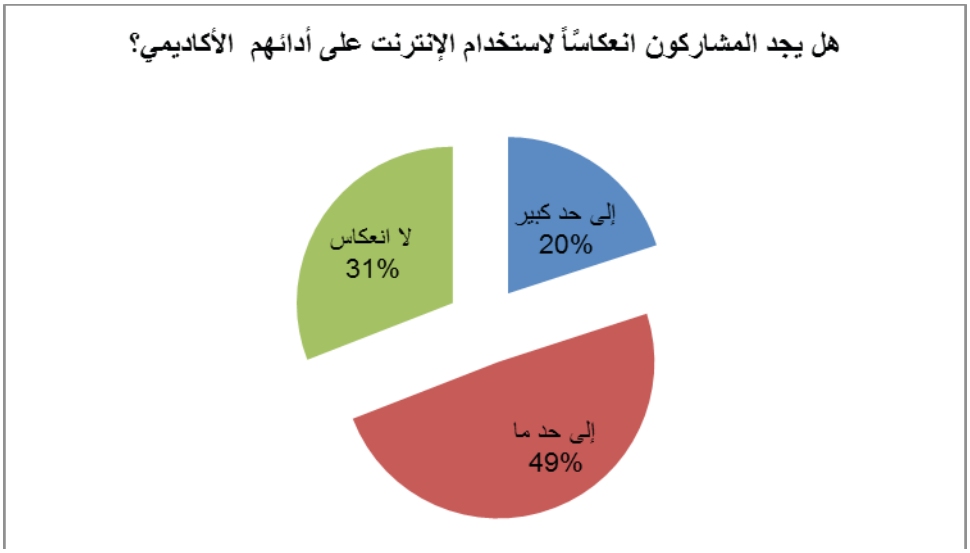

الرسم رقم 12

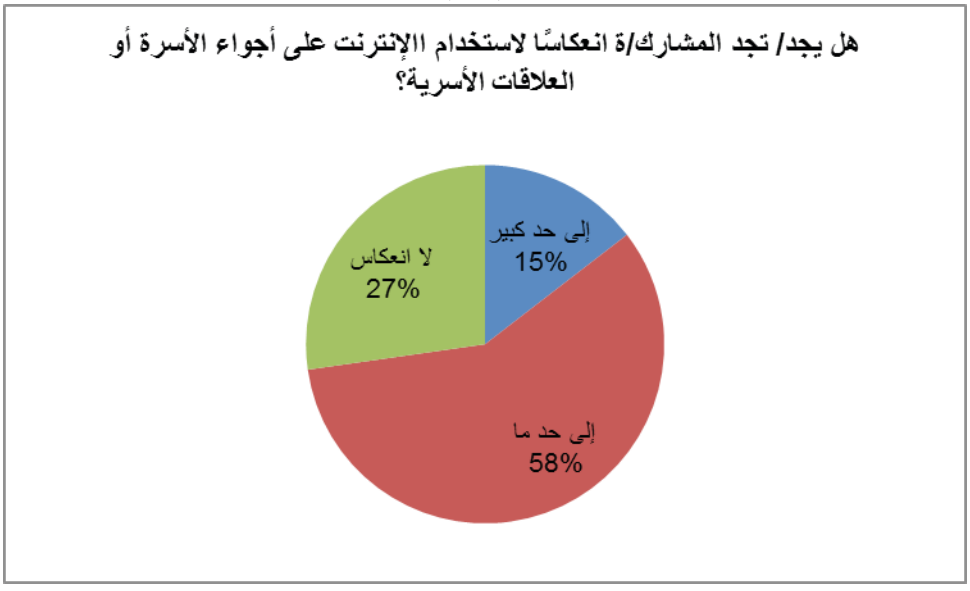

الرسم رقم 13

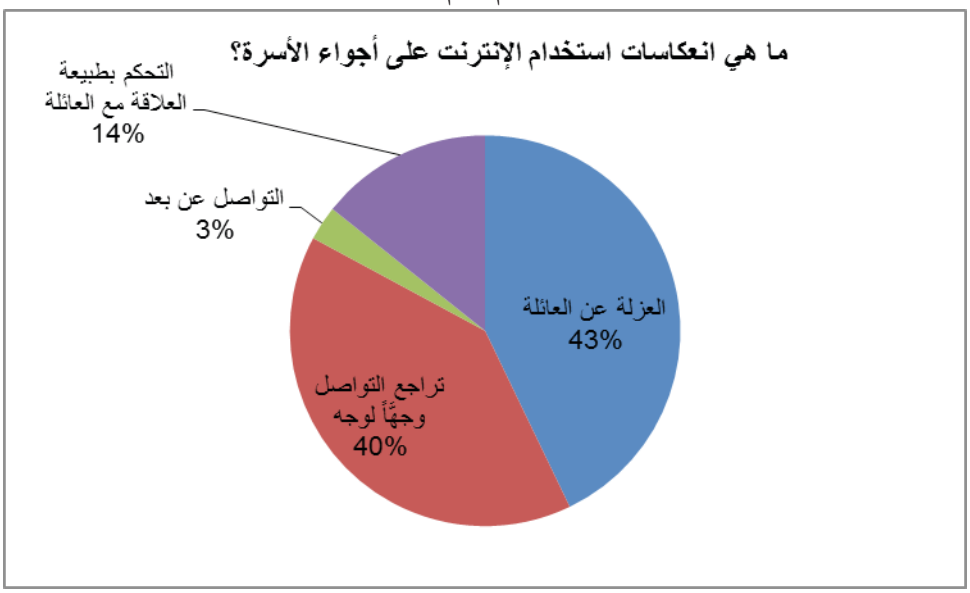

الرسم رقم 14

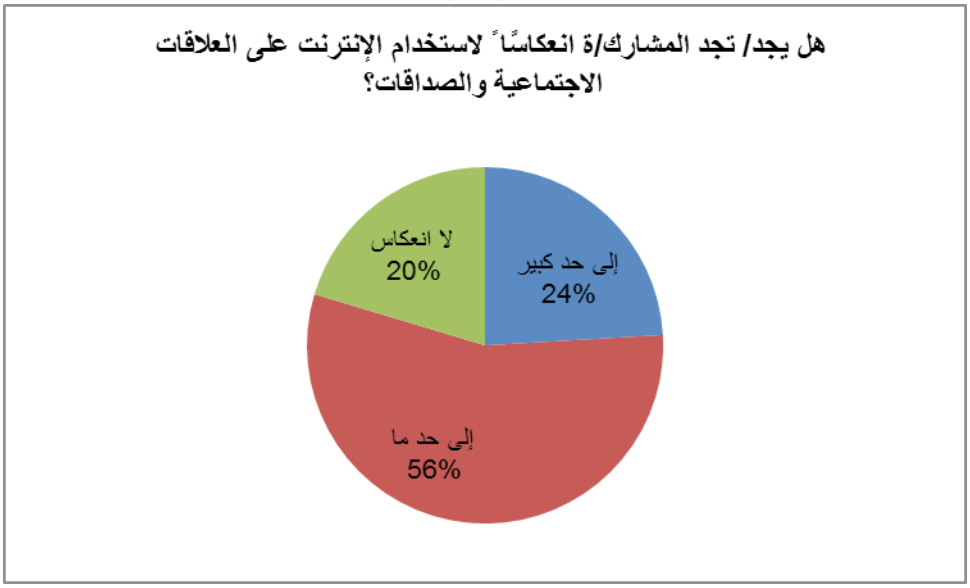

الرسم رقم 15

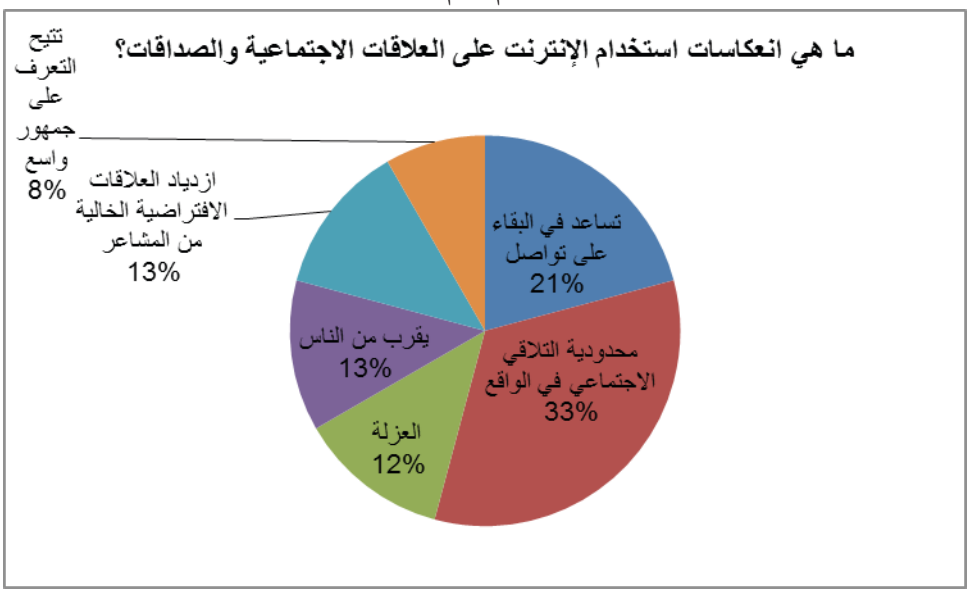

و- الزَّمن يعني لهم بالدرجة الأولى الوقت، والحياة، ومن ثم الوقت المعيش والوقت الثمين / أَوْلَت الغالبية الأهمية على التوالي: للحاضر، ثم للمستقبل، ثم للثلاثة معاً، ثم للماضي.

فئة قسمت الزَّمن إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل / وفئة ثانية إلى ساعات، وأيام، وأشهر، وسنوات / وفئة ثالثة إلى أفعال وأهداف وخطط.

وفسَّر المُستَجوَبون معنى الزَّمن على أنه الوقت بنسبة 38٪، والحياة بنسبة 38٪، والوقت المعيش بنسبة 14٪، والوقت الثمين بنسبة 10٪. ويتكوّن الزَّمن بنظرهم من الماضي والحاضر والمستقبل بنسبة 56٪، ومن ساعات وأيام وأشهر وسنوات بنسبة 33٪، أما الذين رأوا أنه يتكون من أفعال وأهداف وخطط فكانت نسبتهم 11٪. وأَوْلى المشاركون الأهمية للحاضر بنسبة 50٪، والمستقبل بنسبة 28٪، وللثلاثة معا بنسبة 16٪، والماضي بنسبة 6٪.

ز- عندما يفكّرون بالماضي يجدون فيه على التوالي: دافعاً للأمام، وعامل اطمئنان، وإرباكاً، وإعاقة / بينما يجدون في الحاضر على التوالي: ضغطاً، واطمئناناً، وإرباكاً،

وإحباطاً / وعندما يفكّرون في المستقبل، تتوقّع الغالبية لنفسها مستقبلاً واعداً، وأقلّ من النصف يتوقّعون لبلدهم مستقبلاً مشرقاً.

واللّافت أنّ الطلّاب الذين أجابوا عن أسئلة الاستبيان يفكّرون بالماضي بنسبة 93٪، موزَّعين على مَن يفكّر به بصورة مستمرّة بنسبة 47٪، ومتقطّعة بنسبة 46٪. ويتوزّع تفكيرهم في الماضي على التوالي: ماضيهم على المستوى الشخصي بنسبة 41٪، والماضي على المستوى العامّ بنسبة 27٪، والماضي القريب بنسبة 19٪، والبعيد بنسبة 9٪، والماضي بشكل عامّ بنسبة 4٪.

وحول ما يخطر ببالهم للوهلة الأولى لحظة تفكيرهم بالماضي على المستوى الشخصي، توزّعت الأفكار على التوالي ما بين الحنين، والعائلة، وأيام الدراسة، والطفولة، والذكريات المؤلِمة، والتغيير الحاصل، والأخطاء، والصداقات، والإنجازات، والتجارب الماضية. أمّا على المستوى العامّ، فَنَحَتِ الأفكار على التوالي باتجاه الأحداث التي مرَّ بها لبنان، بنسبة 42٪، لتتوزَّع النسبة المتبقّية على بعض الحقبات التاريخية، والعلاقات الاجتماعية، وفقدان القيَم، والتقدّم التكنولوجي، وسرعة الزَّمن، والعمل، والدراسة.

الرسم رقم 16

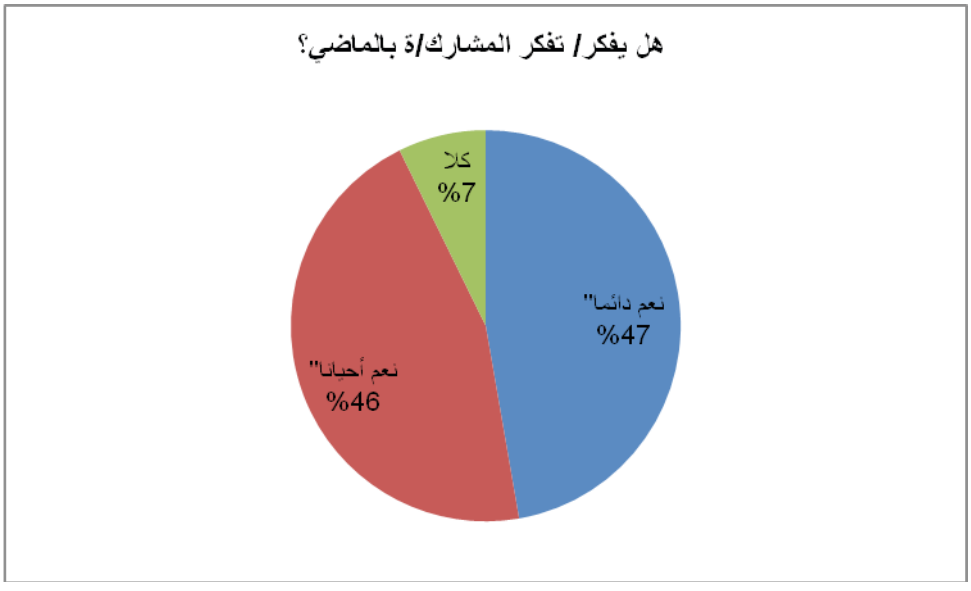

الرسم رقم 17

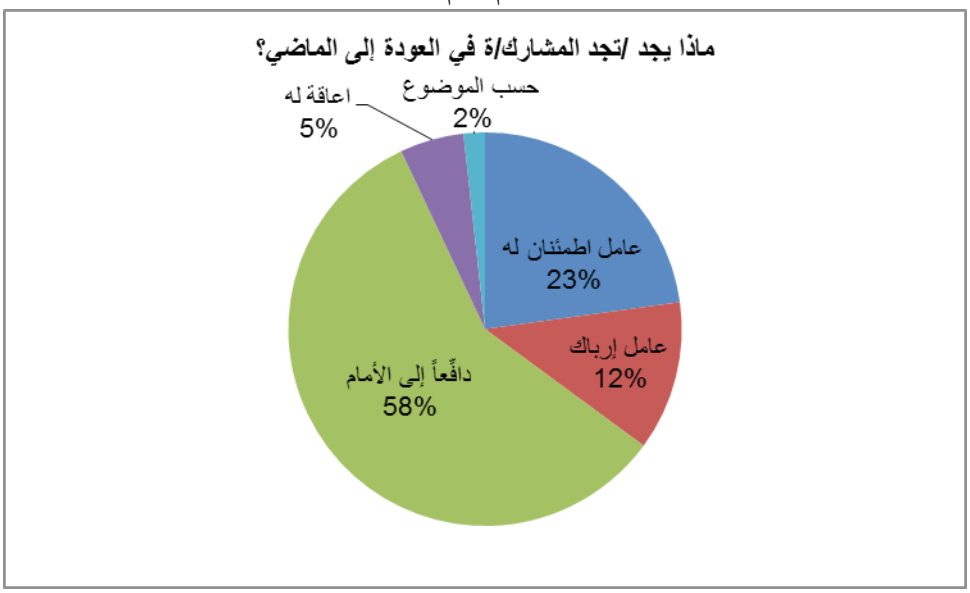

ولدى تفكيرهم بالحاضر على المستوى الشخصي، تتوزّع أفكارهم على التوالي على: العمل، والعائلة، والوضع المعيشي، وتطوير الذّات، والتحضير للمستقبل، والدراسة، وتحقيق الإنجازات، والحياة اليوميّة، وتصحيح الأخطاء، والاستمتاع باللّحظة. وعلى المستوى العامّ يفكّرون على التوالي بأوضاع العالَم العربي بنسبة 64٪، يليها التفكير بالعمل، وبموجات التعصّب، وبالتطوّرات التكنولوجية.

الرسم رقم 18

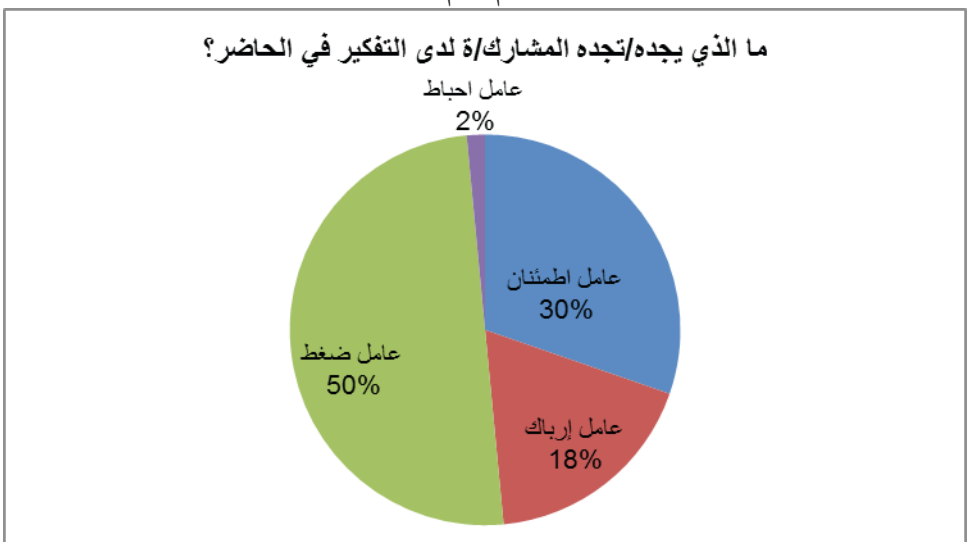

ويشغل المستقبلُ بالَ نسبة 89٪ منهم موزَّعة بين: «إلى حدٍّ كبير» بنسبة 65٪، و«إلى حدٍّ ما» بنسبة 33٪، شاغلاً بالهم على المستوى الشخصي بنسبة 41٪، متوقّعين لأنفسهم مستقبلاً مُطَمْئِناً وواعِداً بنسبة 91٪، وعلى المستوى العامّ بنسبة 28٪، متوقّعين لبلدهم مستقبلاً مُشرقاً بنسبة 44٪، وعلى المستويين على حدّ سواء بنسبة 31٪.

الرسم رقم 19

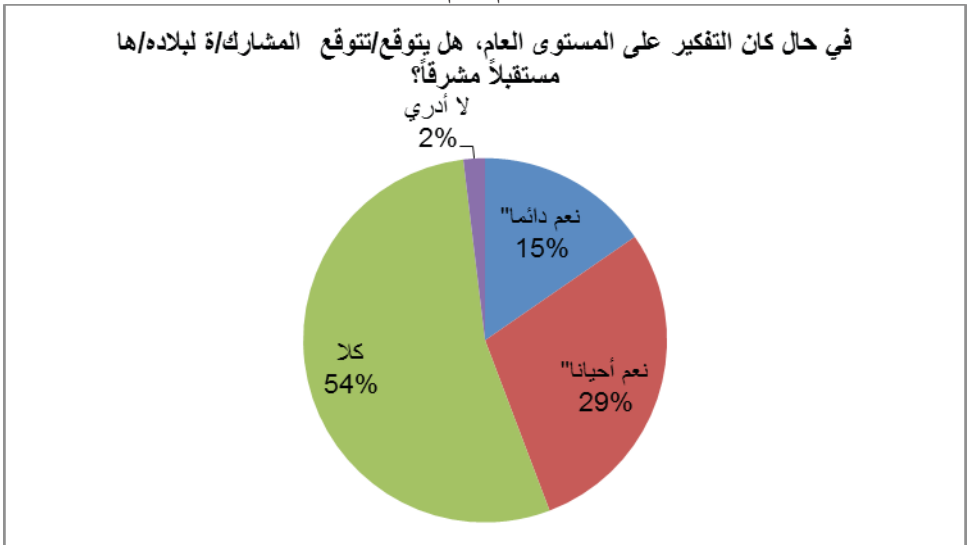

ح- نسبة 96٪ من المُستَجوَبين يجدون لديهم مُتَّسَعاً من الوقت لإنجاز المطلوب / مقابل نسبة 4٪ يشعرون بحاجة إلى المزيد من الوقت / نسبة 11٪ فقط اعترفوا بعدم تمكّنهم من الانتظار ومن التملّي والتفكير في الأمور / نسبة 22٪ أعربوا عن عدم ارتياحهم في التعامل مع الوقت / الغالبيّة لديهم شعور بأنّ هناك مَن يتحكَّم بوقتهم بنسبة 82٪، موزَّعة على التوالي على: العمل، والالتزامات العائلية، ومتطلّبات الحياة، والدراسة، والمناسبات الاجتماعية.

الرسم رقم 20

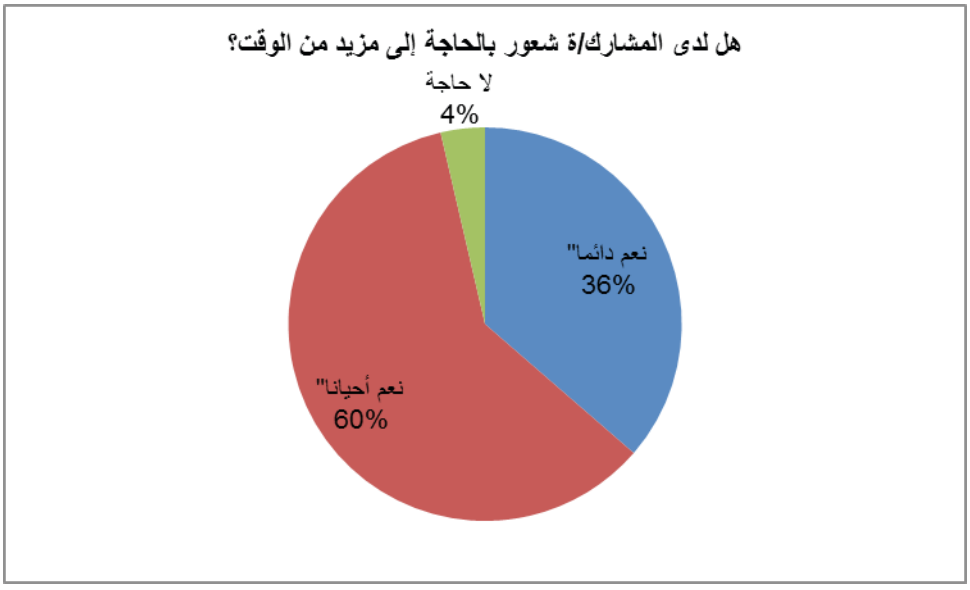

الرسم رقم 21

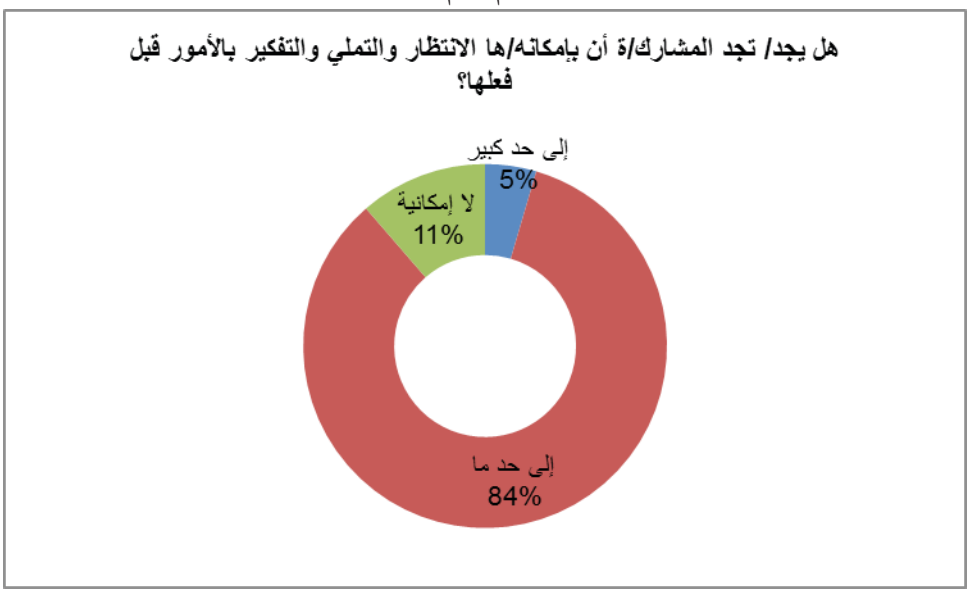

الرسم رقم 22

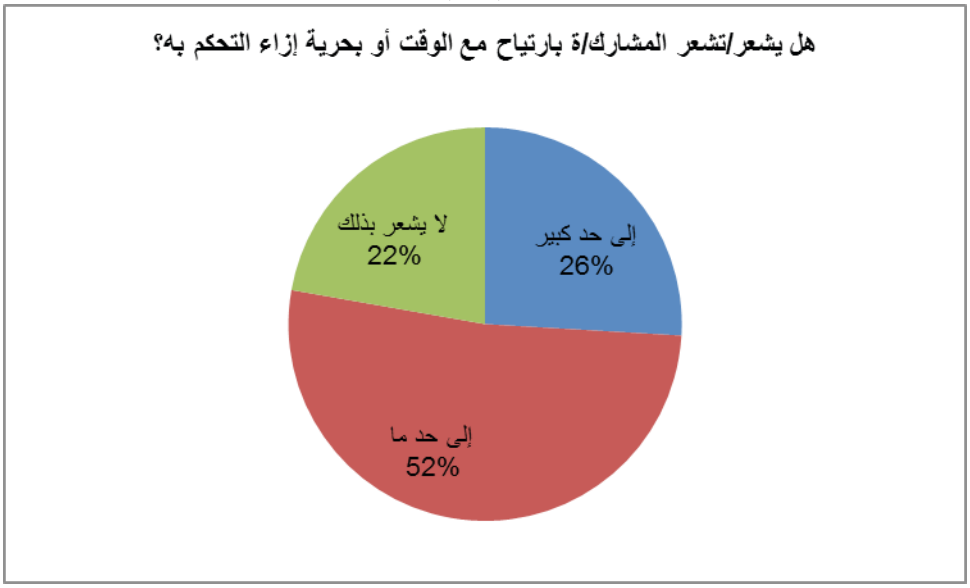

الرسم رقم 23

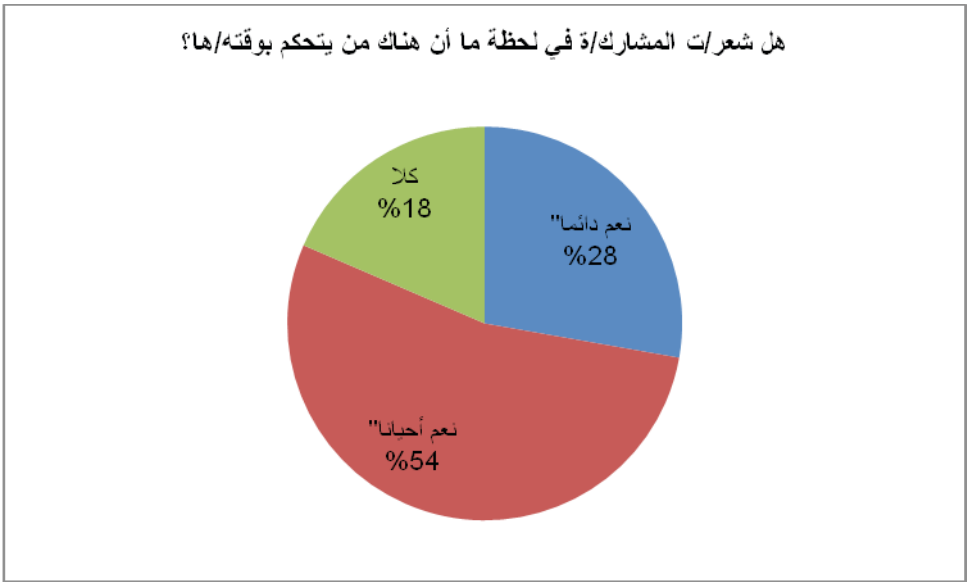

الرسم رقم 24

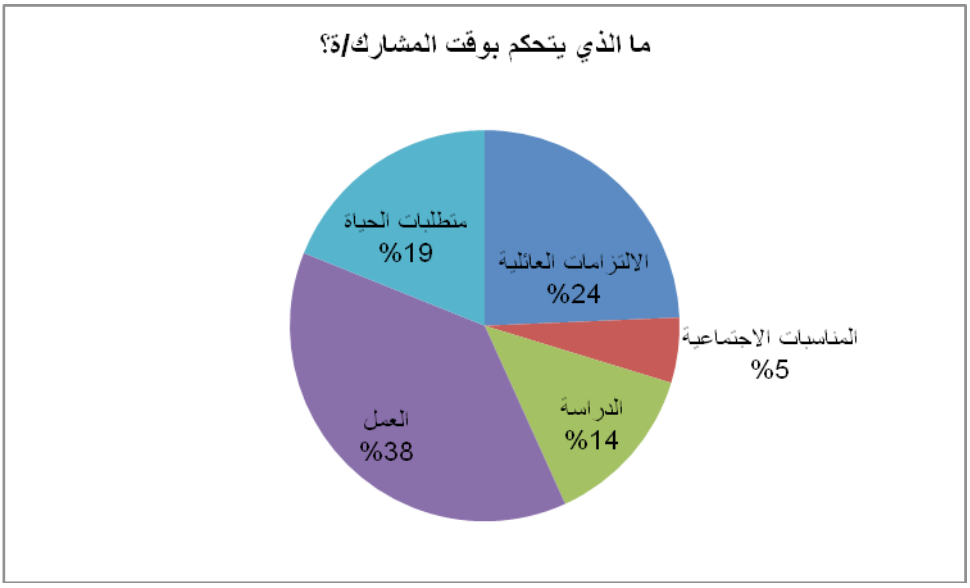

ط- الغالبية تفكّر بوضع خطط لإدارة الوقت، كان مصير أغلبها النجاح / الغالبية تشعر بفارق بين زمن الإنترنت وزمن الواقع / ومن انعكاسات هذا الفارق بنظرهم على التوالي: تسريع الوقت، وعدم التمكّن من إنجاز العمل، وهدر الوقت / الغالبية وجدت أنّ الإنترنت زاد من قدرتها على الانتباه والتركيز بنسبة 84٪ وانعكس على ذاكرتها الفردية والجماعية بنسبة 86٪، متجلّياً ذلك بالدرجة الأولى إمّا إنعاشاً لها وإمّا إمعاناً في النسيان، وبالدرجة الثانية التحكُّم بها. وتَرجم أفراد العيّنة شعورهم وهُم يعيشون اللّحظة والمباشر والسريع والمُلِحّ، على التوالي: بالتوتّر، والقلق، والسعادة والاستمتاع بالنسبة عينها، والسباق مع الزَّمن والطمأنينة.

الرسم رقم 25

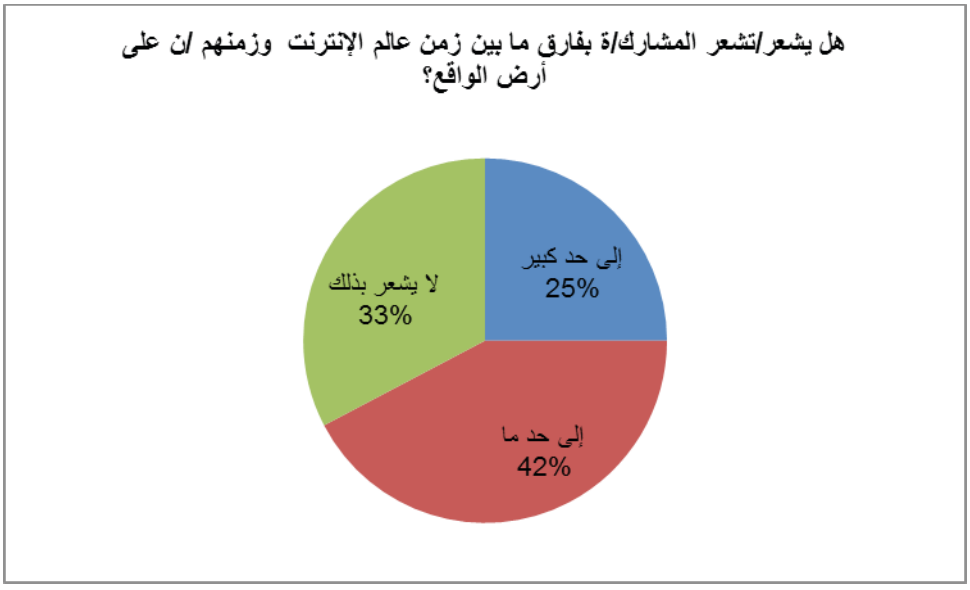

الرسم رقم 26

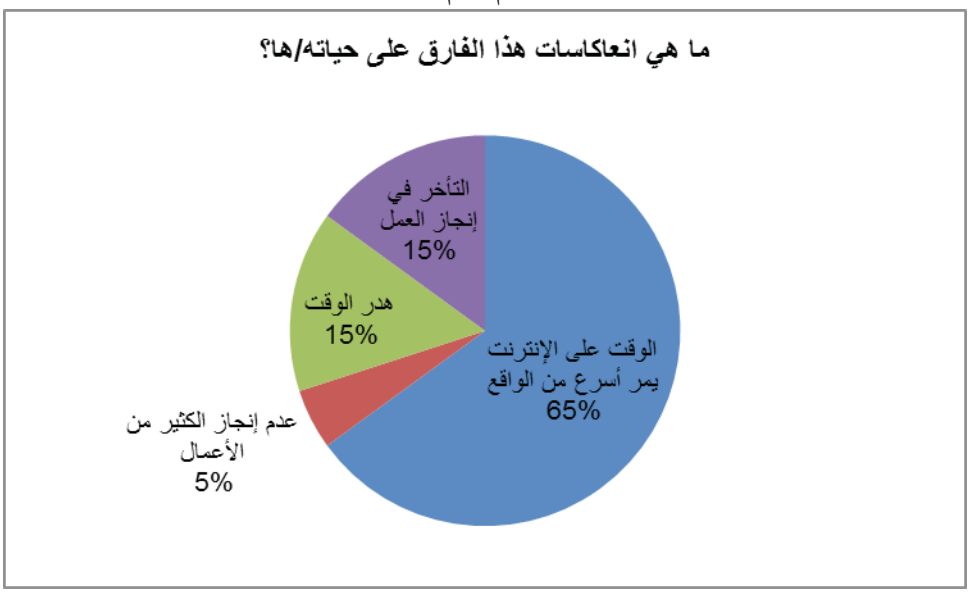

الرسم رقم 27

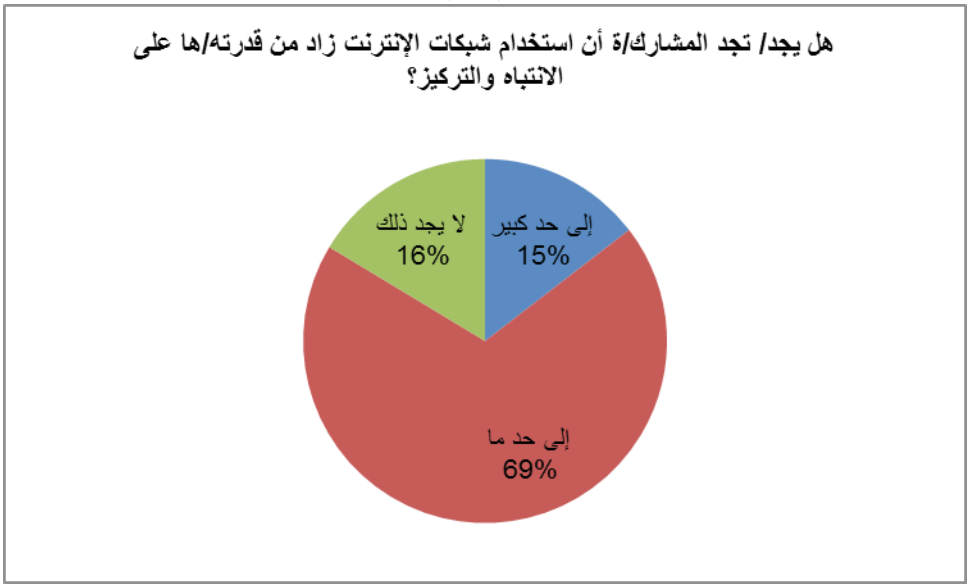

الرسم رقم 28

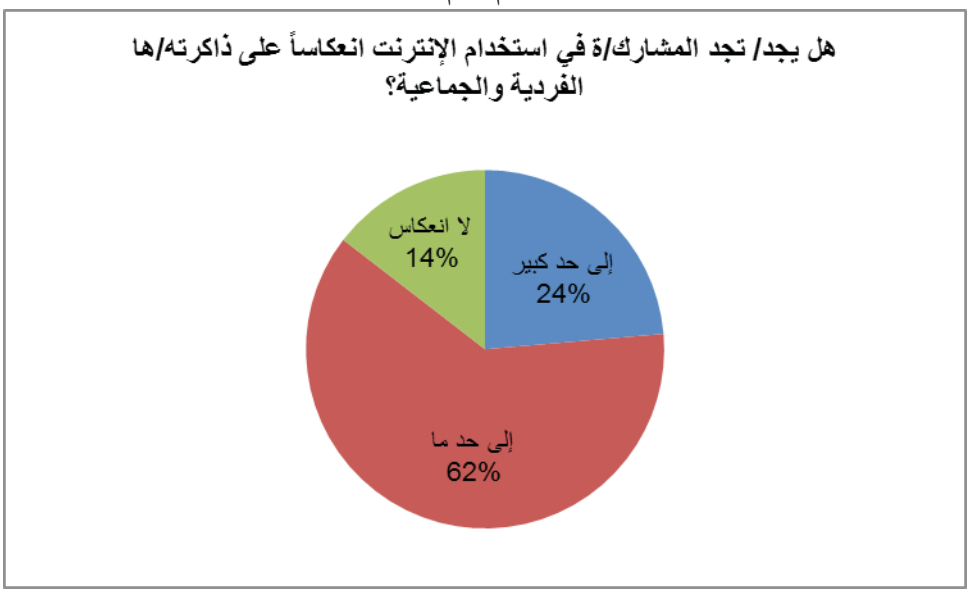

الرسم رقم 29

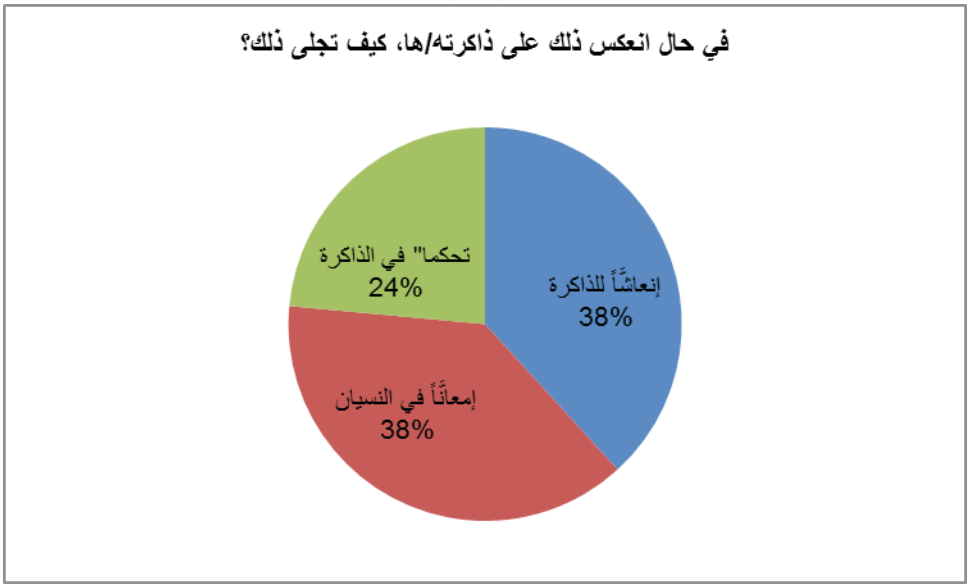

الرسم رقم 30

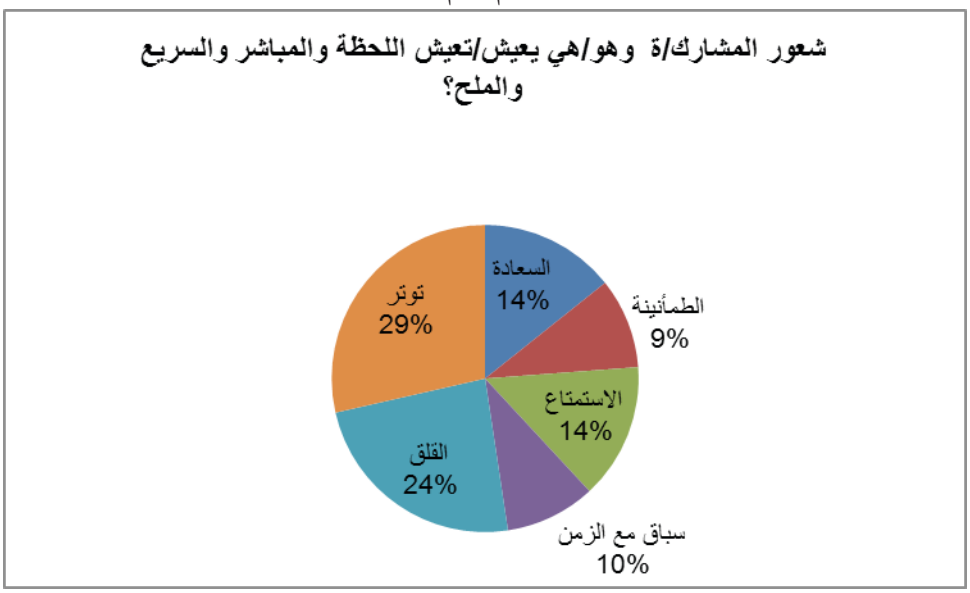

خلاصات سرد الطلّاب لزمنهم

بالإجمال، يصعب رسم صورة واضحة لزمنيّة الطلّاب/ الطالبات. من ناحية، هُم يجيبون بأنّ تصفّحهم للمواقع يستغرق الساعتَين وفي فترة المساء، ومن ناحية ثانية، يصرّحون بأنّ الإبحار يتمّ في أيّ وقت، ويُرافِق العمل والأكل ومشاهدة التلفاز. وإذا كانت أسباب تصفّحهم تعود إلى البحث عن المصادر، ومن ثمّ الأخبار، والتسلية بالدرجة الأخيرة، فإنّ ذلك يتناقض مع تصريحهم بأنّهم أحياناً يفكّرون في التوقّف عن استخدام النت لتجنُّب هدر الوقت، لتعود هذه الإجابة وتتناقض مع ما صرَّحت به الأغلبية من أنّ لتوقّف شبكة الإنترنت مفاعيل سلبية عليهم تُترجَم في مشاعر الغضب، والعزلة، والفراغ، والمَلل التي تنتابهم.

وعلى الرّغم من أنّهم وجدوا في استخدام الإنترنت انعكاساً إيجابيّاً على أدائهم الأكاديمي لكونه يُسَهِّلُ عليهم الوصول إلى مصادر المعلومات، وإن كانت نسبة 11٪ فقط اعترفت بأنّها غير قادرة على التفكير والانتظار والتملّي في الأمور، إلّا أنهم وجدوا أنّ هذا الاستخدام زاد من عزلة أفراد الأسرة وحدَّ من العلاقات الاجتماعية.

أولت الأغلبيّة الأهمّية بالدرجة الأولى للحاضر، وإن كانت قد وجدت فيه بالدرجة الأولى عامل ضغط، مقابل إيجادها في الماضي، الذي حلّ في المرتبة الأخيرة من أولويّاتها، دافعاً للأمام وعامل اطمئنان بالدرجة الأولى. وشغل المستقبل بالَ الطلّاب المُستَجوَبين على المستوى الشخصي بالدرجة الأولى متوقّعين لأنفسهم مستقبلاً واعداً.

وعلى الرّغم من مشاعرهم المتضاربة تجاه تقسيمات الزَّمن، إلّا أنّ سطوة الحاضر بانت بوضوح في أجوبتهم. في هذا السياق، يُمكن إحالة هذه السطوة المُقلقة إلى تأثيرات الوسائل الإعلامية التي تُركِّزُ وتُكَثِّفُ العلاقة المعاصرة مع الحاضر، ما يجعل العالَم الحالي ينكفئ كلّياً عليه. وللمفارقة، فإنّ الحاضر نفسه أصبح صعباً الإمساك به، فالآلات التي تدّعي أنّها تحيط به وتوقفه لا تعمل في النهاية سوى على زيادة الانطباع في الهروب الأبدي في المُلحّ. فالزَّمن الإعلامي المسلوب بقوّة من التكنولوجيّات الجديدة للاتّصال ينتهي بأن ينفي كلّ الأزمنة بما فيها الحاضر نفسه؛ إنّنا في عصر يعرض حاضراً أبديّاً معلّقاً. هذه الحاضرويّة، وهذا الانغلاق في المباشر، ينتهيان بأن ينكرا تسلسل الوقت نفسه، وبهذا تبدو الميديا معلَّقة بين عدمَيْن: المستقبل المُقلق غير المُفَكَّر فيه، والماضي المُحتقَر غير المُعترَف فيه[9].

في معنى الزَّمن، ترددت مراراً على ألسنة الطلاب/ الطالبات كلمة الوقت «معيشاً» أو «ثميناً»، «كافياً» أو «غير كافٍ»، ناظرين إليه على أنه الحياة بعينها. لذا نحت الغالبية إلى تقسيمه إلى حقبات أو فترات زمنية، وقَلَّتْ قسمتُه إلى أفعال وخطط وأهداف. وبدت المفارقة أوضح عندما أعلنت الغالبيّة من ناحية أنّ لديها متّسعاً من الوقت، لتعود وتجيب بأنّ لديها الشعور بأنّها غير قادرة على التحكّم بالوقت، وأنّ التحكّم به مردّه إلى مروحة واسعة من الأمور، بدءاً من العمل، مروراً بالالتزامات العائلية، ومتطلّبات الحياة، والدراسة، وانتهاءً بالمناسبات الاجتماعية. علماً أنّ هذه الغالبيّة تجد نفسها تخطّط بنجاح لإدارة وقتها. وعلى الرّغم من اعترافها بانعكاسات الفارق بين زمن الإنترنت وزمن الواقع المتمثّل في تسريع الوقت، وهدره، وعدم التمكّن من إنجاز العمل، ظنّت الغالبية أنّ الإنترنت ساعدها على التركيز والانتباه، منقسمةً في هذا الصدد إلى قسمَين:

(9) Normand Baillargeon, *Mutations de l'univers médiatique*, op.cit.

قسم رأى أنّه أنعش ذاكرتها، وقسم رأى أنّه جعلها تُمعِن في النسيان، وفئة أقلّ كان لديها شعور بأنّ هناك مَن يتحكّم بذاكراتها. هذا التنوّع الذي أبداه الطلّاب في مَعرِض تَلَمُّسِهِم لانعكاسات استخدام الإنترنت على ذاكراتهم يُخفي تعقيدات تخصّ مسألة النسيان التي تطرح مشكلة غموض العلاقة بين ذاكرة الشبكة والذاكرة الكلاسيكية الجماعية، سواء أكانت تخصّ الفرد أم المجتمع، لا سيّما عندما نكون في طور ترجيح واحدة على الأخرى، كمثل فرض الأنماط الموروثة من الذاكرة التقليدية على ذاكرة الشبكة. غير أنّه يجب ألّا يغيب عن الذهن، في مَعرِض البحث عن النسيان، أنّ الشبكة لا تعرف النسيان، بل تعرف أن تمحو فقط؛ فالأمران مختلفان، والمشكلة تكمن في الخلط بينهما.

والمفارقة أنّ البعض وجد في النسيان الرقمي أحد الرهانات الكبرى التي تؤشر إلى أهمّية العودة إلى الإنساني. وإن كان قد غدا اليوم من شبه المستحيل تعليم الآلة النسيان، لأنّ النسيان يُعدّ نقصاً تقنيّاً. وهذا ما حدا بالمفكّر ميلاد دويهي للتذكير بما قاله نيتشيه (Nietzsche) من أنّ الإنسان من دون النسيان يصبح وحشاً[10]. والحقّ في النسيان، الذي أُثير في الفترة الأخيرة، لم يكن على علاقة بتلف المعلومات المصوَّرة فقط، بل بغياب أي تدخّل بزمن مضمونها؛ على سبيل المثال، كلّ تواصل في «سناب شات» يسير من تلاشيه إلى تلاشيه، وفي هذا المسار لا خلود ولا أزل[11].

ترجمت الأغلبية شعورها وهي تعيش اللحظة والمباشر والمُلحّ والسريع، بالتوتّر والقلق بالدرجة الأولى، لتتنازعها بالدرجة الثانية مشاعر السعادة والطمأنينة، ولتشعر بالدرجة الأخيرة أنّها في حالة من السباق مع الزَّمن. هذه المشاعر التي أفصح عنها الطلّاب نجد مثيلاً لها في دراسة لـجوسلين لا شانس(Jocelyn La Chance) الذي لاحظ القلق والتوتّر عند المراهقين، ووجد أنّ هناك ميلاً لدى بعضهم إلى استنفاذ الوقت بالحدّ الأقصى، وإلى العَيش في الملحّ، كلّ ذلك مع تخوّف من المستقبل ومع

(10) Milad Doueihi, Entretien avec Jean–Paul Fourmentaux, «L'identité à l'ère des Digital humanities», *Les essentiels d'Hermès* , Identités numériques, Expressions et Traçabilité, Sous la direction de Jean-Paul Fourmentaux, Paris, (2014), p 33-51.

(11) روجيه عوطة، «أشباح «سناب شات» وقد انتزعوا حقّهم في النسيان»، موقع المُدن الإلكتروني مُتاح على:

www.almodon.com

قلّة اهتمام بالماضي. وذلك لكون تكنولوجيا الاتّصال التي وقعت في قلب الحياة الاجتماعية للأطفال طاولت علاقتهم بالوقت من خلال تعجيل رغبتهم في المباشر، وقوَّت حتّى تخيّلاتهم واستيهاماتهم في التواجد في كلّ مكان[12]. ورأى باحثون آخرون أنّ الشبكات الاجتماعية الرقمية تقترب أكثر فأكثر من الحماقة التي تمّ وصفها بالتلبّك الفكري، والمتمثّلة بعدم ثبات الانتباه، وبتغيير الآراء، وبالنتيجة بالضعف أمام الأحداث التي يُمكن أن تحصل. وهي تتميّز أيضاً بأنّها تُحَوِّرُ الفكر نحو المستقبل، وتجعله فضولياً للجديد، وتمنعه من أن تكون لديه نقطة ثابتة لامتلاك الحقيقة المُكتسَبة. كما أنّ ذلك يستدعي السؤال حول مخيِّلة هؤلاء الشباب من الرُّوَّاد المُدمنين على شبكات التواصل الاجتماعي، والذين لا يمارسون نشاطاً فكرياً أو تخيّلياً فقط، إنّما مطلوب منهم، لإجراء تبادلاتهم عن بعد، إرسال عدد كبير من الإشارات. فهم مدعوّون لتَعبئة سجلّات عن شخصيّتهم، والردّ على استبيانات، وتقييم صُور، وإرسال إيميلات، وبثّ انطباعات، وفلاشات في كلّ الاتّجاهات في أفقهم السيبري العاطفي. تستهدف هذه الأفعال المفكَّكة والمتقطِّعة العديد من الأطراف المتضادّة، ومن ضمنها الإغواء السيبري الذي يذهب متنقلاً، وكأنّنا نطوي صفحات من كاتالوغ مُعيّن. غير أنّ ميزة التأثّرات الأوّلية المرتبطة بهذا النشاط المحموم هو تبخّرها، هذا عدا عن غياب الالتزام لزمن طويل، وغياب الانخراط العاطفي. ولحظة المرور من مُمكن إلى آخر، ومن بروفيل إلى آخر، يعيش المُستخدِم رغبات صغيرة متتابعة، ونفوراً، وحُبّاً متناهي الصغر، ورغبات مَنسيَّة في فناء الوقت الحقيقي، الذي هو في الواقع وقتٌ غير حقيقيّ لأنّه إلى زوال، وبلا ذاكرة[13].

II- في تمثّلات الطلّاب لزمنهم

هذه المشاعر المُتضارِبة التي حملتها أجوبتهم توارت بعض الشيء عندما خرجنا من النصّ الذي صاغه الطلّاب/ الطالبات عبر إجاباتهم عن أسئلة الاستبيان نحو جلسة النقاش

(12) Jocelyn La Chance, *L'adolescence hypermoderne - le nouveau rapport au temps des jeunes*, (Presses de l'Université Laval, collection sociologie au coin de la rue.Québec, 2011).

(13) Marc Parmentier. «Philosophie des sites de rencontres», *Les essentiels d'Hermès,* (Revue Hermès, numéro 59, 2011), p. 67-79.

المركَّز (Focus group) التي أُجريت نهار الجمعة 3 أيار (مايو) 2016 مع طالبات الدراسات العليا (علوم إعلام واتّصال – كلّية الإعلام). طرحتُ في الجلسة ثلاثة أسئلة محوريّة حول مفهوم الزَّمن ومكوّناته، ووضع الخطط وإدارة الوقت وعوائقهما، كما تمّ نقاش الفَرق بين الزَّمنَين الافتراضي والواقعي وتأثيره على العمل الأكاديمي والحياة العائلية والاجتماعية.

أوّلاً – في مفهوم الزَّمن ومكوّناته

الزَّمن بالنسبة لـ (ز.ع.) هو الماضي، هو ما تتناقله الأجيال من إرث حضاري قيَميّ ومعنويّ. وهي تُدرك التحوّل الكبير الذي طرأ على مفهوم الزَّمن مذ شَرَعت في استخدام مواقع التواصل الاجتماعيّ، بحيث غدا لحظوياً. فبعدما كانت تستفيد من وقتها لتتعلّم، وتقوم بواجباتها الاجتماعية، وتمارس هواياتها بالرَّسم والكتابة، لم يَعُد الوقت يكفيها.

تُعَرِّفُ (آ. ق.) الزَّمن على أنّه الفاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وترمّزه بشريط يتضمَّن الأحداث التي مرَّت بها. وتشكّل اللّحظات المؤثِّرة في حياتها أحد أهمّ مكوّنات هذا الزَّمن.

تعتبر (و. ر.) أنّ الزَّمن هو الحركة التي حدثت في زمان ومكان محدَّدين. بمعنى آخر، تشكِّل المرافق الحياتية مكوّنات الزَّمن الذي تعيشه، وتَعتبر نفسها المحور الأساسي فيه، وتقيس الزَّمن بساعتها البيولوجية، وهي ضابطته الأساسيّة.

تعرّف (ز. ك.) الزَّمن على أنّه الماضي والحاضر والمستقبل. ولكنّها تستغرق وقتاً طويلاً في تذكّر الماضي وفي تخيّل المستقبل، وتدير الحاضر بانتظام شديد، مستغلّةً كلّ دقيقة في الحياة.

تعتبر (هـ.غ.) أنّ الزَّمن هو شريط نرتّب حياتنا فيه، وننظّمها بإرادتنا، ويُمكننا أن نستحضر الماضي ونعيش فيه، وإن كانت هناك أحداث عالمية غير مرتبطة فينا مباشرةً وتشكِّل مفصلاً زمنياً في روزنامتنا الشخصية.

عرّفت (ل. ز.) الزَّمن على أنّه «الفضاء العامّ» الذي يحيط بنا، وهو ساحة صراع بين مكوّنات أساسيّة هي «الماضي والحاضر والمستقبل»، إذ يعيش فيه المرء ضمن دوّامة صراع شديد بين ما راكمه من الماضي، وما سيستفيد منه في الحاضر، وما سيؤسِّسه في المستقبل. وهي تجد أنّ الإنسان لا يمكنه التحكّم في وقته بشكلٍ كامل.

ثانياً – في إدارة الوقت والخطط

تعاني (آ. ق.) من سوء التنظيم في إدارة الوقت، بسبب تحكّم التطوّر التكنولوجي بزماننا. فهي بحاجة دائمة إلى الوقت الذي يمرّ بسرعة هائلة، مُسبِّباً لها توتّراً دائماً.

تلتزم (هـ.غ.) بالخطّة التي تحدِّدها، وتؤكّد عدم حاجتها إلى المزيد من الوقت على الرّغم من تواجدها في الجامعة نهاراً وفي مركز الصليب الأحمر، ليلاً وعملها سابقاً في جريدة «السفير» ومشاركتها في جميع مظاهرات الحراك المدني. أمّا في ما يخصّ الزَّمن الأكاديميّ، فتؤكِّد أنّه مناسب لها، وتَعتبره ضابطاً ومنظِّماً لوقتها.

على الرّغم من أنّ الوقت لا يكفي (ل. ز.) للقيام بمهامها جميعاً، لكنّها تُنَفِّذُ ما يُطلب منها من مهامّ بالوقت المحدَّد، «مُعلِنةً حالة الاستنفار» منذ فترة طويلة تحسّباً لأيّ طارئ.

أكَّدت (و. ر.) أنّ رغبتها في العمل هي التي تحدِّد وقتها.على الصعيد الأكاديمي، فهي تقدِّم أبحاثها في الوقت المحدَّد ولا تشعر بضغط الوقت، خصوصاً أنّها لا تعمل.

ترفض (ز. ك.) هدر الوقت والتأخّر عن المواعيد. تخاف من المفاجأة لذا تتحضَّر لها كثيراً. على الرّغم من أنّها لا تضع خططاً، إلّا أنّ تنظيمها للوقت يأتي فطريّاً، وهي لا تقوم بعملَيْن في وقتٍ واحد.

معيار إدارة الوقت لدى (ز.ع.) هو الاستحقاق، فإذا كان الاستحقاق مُهِمّاً لمستقبلها، فهي مستعدّة للانفصال عن العالَم والتفرّغ له. وهي لا تحبّذ أن تضغط على نفسها وأن تُحكَمَ بالوقت.

ثالثاً – الزَّمن الافتراضي: تأثيراته وانعكاساته

ترى (ز.ع.) أنّ العالَم الافتراضي يأخذ منّا أكثر ممّا يعطينا ـ يأخذ منّا الحياة الاجتماعية، والقيَم، فضلاً عن بَرمَجة الأدمغة. وعلى الرّغم من الوقت الطويل التي تمضيه على الفايسبوك، فهي لا تعتبره مضيعة للوقت، لأنّها تستخدمه بمتعة، وتهرب من الواقع إلى العالَم الافتراضي. وتجد أنّه ساعدها على إقامة التوازن على الصعيد الاجتماعي والحياة الافتراضية، مشيرةً إلى أنّ مجرد وجود هاتفها معها دائماً يُشعِرُها بالأمان. بالنسبة إليها، الزَّمن الأكاديمي هو الاستحقاق الأهمّ في حياتها، تكرِّس له الوقت الأهمّ، وتؤكِّد الجانب الإيجابي للإنترنت لجهة تسهيل عمل الباحثين.

تفضِّل (آ. ق.) حياتها الاجتماعية (في الواقع والعالَم الافتراضي) على حياتها المهنية والأكاديميّة، مشيرةً إلى أنّ انجرار المجتمع للعيش في الزَّمن الافتراضي أجبرها على ركوب الموجة، فهي لن تعيش لوحدها في الزَّمن الواقعي. وتعتبر أنّ الإنسان يُحدِّد تأثير الإنترنت عليه سلباً أو إيجاباً. ففي الحياة الأكاديمية يؤثِّر إيجاباً إذا ما استُخدم للبحث عن المعلومات، وفي حال استُخدم للتسلية فهو يؤثِّر سلباً ويؤدّي إلى هدر الوقت الأكاديمي. كما تؤكّد تأثيره السلبي على الأسرة بسبب انقطاع الحوار بين أفرادها. أمّا على صعيد الحياة الاجتماعية، فالتناقض سيّد الموقف، فهو يقرِّب البعيد ويُبعِد القريب.

أكّدت (و. ر.) أنّ الزَّمن الافتراضي لا تلمسه ولا تعيشه لقلّة استخدامها مواقع التواصل الاجتماعيّ.

لم تَرَ (و. ر.) تأثيراً للإنترنت على حياتها الخاصّة، وعلى صعيد العائلة. أمّا على الصعيد الأكاديمي، فسهَّل الإنترنت وصولها إلى مصادر المعلومات التي لم تكن لتحصل عليها حتّى في المكتبات اللّبنانية.

من جهة الحياة الاجتماعية، لولا الفيسبوك لم تكن لتستطيع التواصل مع الكثير من الرفاق الذين لا يتواجدون في محيطها، ولكن عند الاجتماع مع الأصدقاء تنزعج جدّاً من اندماج الأصدقاء بالهواتف الخليوية لأنّ ذلك يشكّل جداراً أمام أيّ حوار مباشر.

تجد (هـ.غ.) أنّ الزَّمن الافتراضي يتكامل مع زمنها الواقعي، وبعدما أفرطت في استخدام الفايسبوك عملت على تنظيم استخدامها له على نحو معقول. من الناحية الأكاديمية، سَهَّلَ لها الإنترنت الوصول إلى مصادر لم تكن تستطيع الحصول عليها أو شراءها. أمّا على مستوى الحياة الاجتماعية، فقد قرَّبها من أشخاص بعَّدت بينهم المسافة.

يندر استخدام (ز. و.) لمواقع التواصل الاجتماعي. أمّا في الشقّ الأكاديمي، فتؤكِّد على تأثير الإنترنت الإيجابي الذي ساعدها كثيراً في أبحاثها. وهي تجد أنّ استخدام الهواتف في حضور أشخاص آخرين يُقلِّل من احترامهم.

من ناحية، شبّهت (ل. ز.) «الإنترنت بالنبي المُرسَل من الإنسان إلى أخيه الإنسان، ينشر له رسالة المعرفة، ويُقلّه من الظلمة إلى النور». ومن ناحية ثانية، تُشير إلى خطورة

الإنترنت الكامنة في سوء استخدام الإنسان لهذه الثورة المعرفية. وهي تجد أنّ الزَّمن الافتراضي متأخّر عن الزَّمن الواقعي، لأنّه نوع من تأريخٍ للّحظة الحاصِلة في الماضي؛ فغالبيّة التعليقات الواردة على الفايسبوك ما هي إلّا سرد لأحداث ماضية حصلت مع الشخص.

III- في التَّباعد بين زَمن الطلّاب والزَّمن الأكاديمي

اللّافت أنّ التناقض الذي اعترى أجوبة الطلّاب/ الطالبات على الاستبيان خَفَّت حدّته لدى الكلام في حلقة النقاش، فكان لافتاً كيف اعتنت الفتيات ببناء صيغة توافقية لهويتهنّ السرديّة بما يتناسب والبيئة المحيطة بهنّ والمجموعات التي ينتمين إليها على أرض الواقع. فوجد بعضهنّ الزَّمن الافتراضي مكمِّلاً للزمن الواقعي، ووعي البعض الآخر لتلك النقلة من الماضي إلى اللّحظوية، ووجدت أخريات في الزَّمن الافتراضي تأريخاً لحظوياً لما يحصل في الماضي على أرض الواقع. فلعبن في الزَّمن ومع الزَّمن، ناظرات إليه على أنّه شريط من الأحداث واللّحظات المؤثِّرة في حيواتهنّ. وبدت غالبيتهنّ متمهّلات، وغير متوتّرات وواعيات لمخاطر الإفراط في استخدام النت، ولمفاعيل هدر الوقت، ومتحكّمات بزمنهنّ، وغير منبهرات وغير متخوّفات من الزَّمن الافتراضي، ومختصرات الزَّمن الأكاديمي بالاستحقاق، أي بعلامة النجاح. قلّة منهنّ اعترفت بضغط الوقت، وبهروبها من العالَم الواقعي نحو العالَم الافتراضي. وبمعزل عن هذه الصورة التوفيقية التي حرصن على الظهور من خلالها، إلّا أنّه لا يعدم المُراقب الملاحظة بأنّ الأساليب الإعلامية المُعتمَدة في وسائل الإعلام التي تلقَّيْنَها وعايَشْنَها أثناء تكوينهنّ المهني والأكاديمي تتضارب مع أسلوب البحث العلمي وطريقته. من هنا تنبع أهمّية وعي عمق المشكلة التي تمّ التغاضي عنها، والمتمثّلة في أنّ هؤلاء الطالبات ما هنّ إلّا نموذجٌ عن الإنسان المستعجل الذي وصفه بول موران (Paul Morand)، والذي يريد اليوم أن يملكَ عِدّة ثقافية سريعة كما يستهلك الوجبات السريعة، لكونه مُحاطاً بالميديا التي ما برحت تخضع لهذا التسريع حتّى في الصحافة المكتوبة. فكلّ مجال إعلامي غدا ينكفئ على اليومي في برنامج زمني غريزي، يُوَزَّعُ أتوماتيكياً عبر السرعة المحيطة، ما

يَدَعُنا جميعاً نذهب تلقائياً نحو الأسرع والأقصر[14]. وإن كانت بعض التعبيرات التي وردت على ألسنتهنّ تشي بذلك كمثل وصفهنّ الزَّمن بالشريط، أو بساحة الصراع، أو باللّحظات المؤثّرة، أو بالفضاء العامّ. غير أنّ الشكل الانفعالي للمباشر الذي يستدعي الشهود الخامّ لا يترك الوقت لبناء الهويّة، ما يعني أنّ الملحّ يمنع أيّ شكل من إعادة التنظيم للقصص ومختلف ألعابها الزمانية[15]. وهذا ما ينقلنا إلى مشروعية التساؤل حول الضرورة التربوية للتمسّك بالأمكنة وباللّحظات التعليمية البطيئة في المدرسة إزاء هذا التوسّط الإعلامي المُتسارِع. إذ أتت الاختراعات الجديدة لتهزّ بسرعة الأُسس وطُرق العمل والممارسات التقليدية. فغدت الأسئلة حول التفاعل بين الطلّاب والأساتذة، بين الجامعة وخارجها ملحّة، وخصوصاً بعدما تعمّقت الفروقات بين زمنيّة الطلّاب والأساتذة، والتي يمكن سردها عبر الملاحظات أدناه:

1. مقابل البطء والتمهل والتملي في الأمور، والتفكر في الموضوعات المطروحة قبل التصدي لمعالجتها، كنت ألاحظ، عندما أطرح عليهم سؤالاً، ميل غالبيتهم للسرعة والمباشره في الإجابة، وأن ليس هناك من لحظات للعودة إلى داخلهم، وليس هناك من لحظات صمت قبل الإجابة. ولدى تصدّيهم لمعالجة موضوع معيّن، غالباً ما كانوا يذهبون مباشرةً لاستخدام محرّكات البحث على الإنترنت من دون معرفة ما يريدون البحث عنه بالتحديد.
2. مقابل الميل إلى عدم البتّ النهائي والحاسِم في الأجوبة والاعتقاد بلا نهائية وعدم إطلاقية ما يُكتب وما يتمّ الاطّلاع عليه، كنتُ أجد لديهم اقتناعاً حاسماً ومُطلقاً بما سمعوه وبما قيل لهم، مجال الشكّ لديهم كان ضيّقاً جدّاً.
3. مقابل البحث المستمرّ عن وجهات النَّظر المختلفة ومحاولة وضع الأمور في سياقاتها، ووعي تعقيداتها، كنت ألاحظ انزعاجهم من الخوض في المفاهيم وتمايزاتها وتناقضاتها ومتغيّراتها.
4. مقابل الميل للنقاش والبحث عن وجهات النَّظر المُتضاربة، والمُقابَلة بينها، كنتُ

(14) Marc Lits, Temps et médias: un vieux couple dans des habits neufs», op.cit.,p. 54.
(15) Ibid, p.57.

أجدهم يلجأون بسرعة الى تبنّي وجهة نظر واحدة صادفوها على النت، من دون تركيز، ومن دون تَنَبُّهٍ إلى تناقضاتها.

5. مقابل سماعي وجهات نظرهم، كائنة ما كانت، كنتُ ألاحظ قلّة استعدادهم لسماع بعضهم البعض الآخر.

هذا التباعد في الإيقاع أَسَّسَ لعلاقة في البداية متوتّرة، إلى أن تمكّنتُ بشقّ النَّفس من تأسيس منطلقات مفاهيميّة سليمة تُخَوِّلُهُم لاحقاً من الإمساك في الموضوع المطروح عليهم، واستدرجتهم لقراءة مجموعة أبحاث مكتوبة زوَّدتهم بها وحدَّدت مواعيد لمناقشتها واكتشاف الاختلافات بينها، وخصوصاً تلك العائدة إلى المنطلقات المفاهيمية وإلى السياقات المُحيطة، وأدوات البحث المُستخدَمة، بهدف تحضيرهم لإدارة مشروعاتهم لاحقاً، ودرّبتهم على الكلام ببطء وبطريقة واضحة، وعلى حسن الاستماع، وعلى وعي تعقيدات الموضوع وسياقاته. لقد عملتُ على جعل حركتهم بطيئة أكثر فأكثر، وكان أن أثمَرت هذه المحاولات في امتحان نهاية العام، فطرحتُ عليهم موضوعاً راهناً يتعلّق بالانتخابات البلدية والحملات التي رافقتها، واستخراج أُسس ومعايير التسويق السياسي منها بالعلاقة مع السياق اللّبناني. بمعنىً آخر حاولتُ وضعهم في وضعيّة الباحثين الذين يحرّكون المعارف التي اكتسبوها، ويتساءلون، ويضعون الفرضيات، ويستكشفون، ويُشكّكون، ويقابلون المعلومات، ويعون تعقيدات الموضوعات المطروحة عليهم وصعوبة فصل عناصرها بعضها عن البعض الآخر، وفصلها عن سياقاتها.

هذه المحاولة بُنيت على فرضية أنّ هؤلاء الطلّاب ليسوا أقلّ ذكاءً ولا أفضل من الأجيال التي سبقتهم، إنّما هم مختلفون، لكونهم عاشوا ونشأوا في فضاءٍ مختلف، ميزَتُه أنّه غير تراتُبي، في شبكات حيث الكلّ يتكلّم إلى الكلّ، وبالتالي لم تَعُد محفّزات ذاكرتهم هي ذاتها، والمعلومات غدت مُتاحة، بغضّ النَّظر إن كانت القاعدة المعرفية مُكتَسَبَة أم لا. لذا غدت مختلف البنى والهياكل المؤسَّسية، بما فيها الأكاديمية موضع تساؤل، وغدا التحدّي الكبير يتمثّل في «كيف يُمكن تخيّل تربية ذات هندسة موزَّعة في الشبكات من دون مربّين ومعلّمين»[1].

خلاصات عامّة

بما أنّ الزَّمن هو بناء ثقافي، فقد أصبح المطلوب من الجامعة أن تُعيد النَّظر في زمنيّتها، وأن تتحوّل إلى مكانٍ لبناء علاقة مُغايرة مع المعرفة، عبر تحفيز الطلّاب على أن يديروا مشروعاتهم، وأن يتعلّموا طُرق البحث ومعالجة المعطيات وتحليلها وتنظيمها وحفظها ونشرها، أي تحضيرهم لوعي لعبة الزَّمن بطريقة أكاديمية واعية لمعنى التفاعلية، ولمفاعيل السرعة والمباشرة والآنية على أدائهم التعلُّمي، مدركة للفروقات بين الحقيقة وما يشبه الحقيقة، وبين الافتراضي والواقعي، والأهمّ من كلّ ذلك إكسابهم مهارات التأمّل والتفكير وسماع النفس والعودة إلى الداخل، قبل الشروع في الاتّصال، كي تجنّبهم الإبحار بحثاً عن المعلومات على غير هدي. في هذا الصدد، فرَّق برتون (Philippe Breton) بين الداخلية والتفاعلية: فالداخلية، بالنسبة إليه، هي فضاء داخلي شخصي وخاصّ، يتمّ فيه الحوار والتداول مع النَّفس في غيرية ذاتية غريبة، أمّا التفاعلية، فإنّها تعني إمكانيّة الكلام في أيّ وقت، والاندراج في ما يقوله الآخرون، ومن ثمّ الكلام بصدده. ومن صفات التفاعلية، الآنيّة والراهن، والكلام بسرعة، هذا عدا عن أنّها تخلي السكوت، وتنبذ أيّ وقت ميّت خدمةً للاتصال. وبهذا يمكن للزمنية التفاعلية أن تنحو باتّجاه السرعة القصوى، في حين أنّ زمنية الداخلية والحوار الداخلي تقوم من خلال تفعيلة أو تقطيع خاصّ دائماً مغاير عن مراحل التسريع. فمن المؤكّد أنّ الإجابة التلقائية أسرع من التفكير. لذا يسمح مصطلح التفاعلية القائمة على مجموعة ممارسات جماعية بالاستدامة الاتّصالية[16].

وبهذا أصبح الطلّاب المُبحِرون في الشبكة أشبه بقادة طائرة بسرعة الصوت، قادرين على تخطّي حدود الزمان والمكان، يعيشون وَهْمَ التفاعلية التي هي على صلة بالمنطق الزَّمني الجديد. فكما هو معلوم، بدأت المرحلة الأولى من التفاعلية مع جهاز التحكُّم عن بعد، ما جعل التنقّل يُغيّر من فعل المشاهدة المُتلفَزة ويسمح للمُشاهِد أن يدخل إلى البرنامج ويغيّره على هواه، ما أعطى المُستخدِم الوَهْم بإمكانية السيطرة على شبكة الوقت وتغييرها متى شاء. هذا الوَهْم في السيطرة على البرامج تَطَوَّرَ مع تطوُّر الإيبرتكست

(16) Philippe Breton, *L'incompétence démocratique, la crise de la parole aux sources du malaise (dans la) politique*, (Paris, éd. La Découverte, 2006), p .200-201.

(Hypertexte) ومع شبكات الإنترنت حيث أصبحت، كلّ المعطيات مُتاحَة اليوم «أون لاين» وبشكلٍ مباشر وآنيّ. وبهذا، يُمكن الاستنتاج أنّ الافتراضية والتفاعلية، بالطريقة عينها من ظهور الوقت الفعلي، غَيَّرَتا علاقتنا باستهلاك الزَّمنية الإعلامية والاتّصالية. فهذا التسريع للزمن الميديوي، الذي يُلاقي الوقت الآني كي يلعب في التعاقب، يترافق في الحركة عينها مع الآثار الناتجة عن الافتراضية والتفاعلية التي تغَيِّرُ بدَورها علاقات التلقّي الميديوي. والدليل أنّ حرب الخليج لم تشكِّل فقط كاشفاً للنيو تلفزيون المباشر إنّما أيضاً كانت إخراجاً للصُّور الافتراضية. وبهذا، أُضيفَ إلى وَهْمِ الزَّمنية المباشرة وَهْمُ الصُّور الحقيقية، مع كلّ الغموض بين الواقع وبنائه، بين الواقعي والخيالي، بين الواقعي والافتراضي[17].

والأهمّ من كلّ ما تقدَّم، غدا مطلوباً من الجامعات أن تتوقّف أمام أنظمة الانتباه المُترافقة مع المنظومة الاتّصالية والتكنولوجية الراهنة، وتتملّى بأبعادها ومستتبعاتها على الأجيال الشابّة، بعدما تَكَهْرب الانتباه وتَرَقْمن، واستُنفِدَت مختلف الأساليب لجذبه، وبخاصّة بعدما تبيَّن أنّ الكلّ يتكلّم في هذا العالَم الافتراضي ونادراً ما يَسمع أحدٌ الآخر. في هذا السياق، صنَّف دومينيك بولييه (Dominique Boullier) أنظمة الانتباه إلى أربعة: الأوّل يقوم على الإنذار، ويميل إلى إخراج الفرد عن طوره ويُغذّي فيه حالة من التوتّر الدائم، ما يستنفد وعيه، علماً أنّ الكثير من الإنذار يقتل الإنذار. والنِّظام الثاني يعمل على ترسيخ الثقة من خلال دفع الأفراد لسماع بعضهم البعضَ الآخر. أمّا النّظام الثالث فيرتكز على عمليّات الإسقاط، أي تنظيم المناعة القصوى ضدّ المؤثّرات الخارجية، وهذا يعني أنّ هذا النّظام يُسقِط أُطره الخاصّة وأنماطه على العالَم الجديد، من دون أن نشعر. فالإسقاط يجعل المرء، بعينَيْن مفتوحتَيْن، في حالة هذيان وحلم بأنّ كلّ وسط جديد يذوب في أُطر معاييره المألوفة. على سبيل المثال، يُصبح المرء غنيّاً بمجرّد أن يصبح مشهوراً، فهو لا يوجد لنفسه بقدر ما هو مُدرَك من الآخرين. لذا يجب تصوُّر صراعاتنا الاجتماعية الحالية على مستوى التوزّع الشامل لانتباهنا الجماعي. فالبروليتاريا الجديدة هي تلك التي تعير انتباهها وتقديرها ولا تتلقّى في المقابل أيّ شيء، والثقافات المتقدِّمة تُصدِر معلومات بكمّيات كبيرة وتستورد في المقابل كمّيات هائلة من الانتباه.

(17) Marc Lits, «Temps et médias: un vieux couple dans des habits neufs», op. cit. p57.

وهناك النّظام الرابع، نظام الغمر، الذي يتطلّب سهراً وأرقاً. يبهرنا هذا النّظام من خلال الأشياء الغريبة والجديدة التي يقودنا لاكتشافها. ويبذل هذا النّظام جهوداً ليجعلنا نتآلف مع المحيط الجديد، لدرجة يوشك أن يُدخلنا في حالةٍ من الإدمان[18].

في هذا السياق، أشار إدوارد هالووِيل (Edward Hallowell)، إلى أنّ إغراء العالَم الافتراضي البديل، والإدمان على الانجذاب لإجراءات المهمّات المتعدّدة تجاه الناس والأشياء، والتبعيّة شبه الدينية لحالة التنقّل الثابت، كلّ ذلك يدلّ على أنّنا نعيش في عالَم التسلية. عالَم تلخبطت فيه المفاهيم والتصوّرات عن المكان والزمان، لذلك نجد أنفسنا أقلّ فأقلّ مقدرة على أن نرى ونسمع ونفهم ما هو مُلائم ومُستدام. ولهذا، كثير منّا يجد أكثر فأكثر صعوبة بالاحتفاظ بالرأس خارج الماء. إنّ ضعف القدرات على الانتباه يتقدَّم بسرعة ويطاول الكثير من المجالات، إلى درجة أنّ هذا التآكل وصل إلى درجة حرجة، وأوصلنا إلى درجة ضياع المقدرة على التركيز بطريقة عميقة ومتماسكة[19].

بالإجمال، تبيَّن أنّ لهذه المجموعة من الطلّاب/ الطالبات إحساساً مختلفاً بالزَّمن، ما يترتّب عن ذلك من ثقافة مختلفة، وقيَم وأساليب تفكير مُغايرة، وهذا ما سينعكس عاجلاً أو آجلاً على البُنى الأكاديمية الحريصة على تفعيل إنتاجيتها وتطويرها، بغضّ النَّظر عن أمكنتها. في هذا الصدد، يشير المفكّر الأميركي ديفيد هارفي (David Harvey) في كتابه «**حالة ما بعد الحداثة**» إلى عددٍ من أفكار الفلاسفة الذين حاولوا تقديم معانٍ مختلفةٍ للزَّمن وعلاقته بالمكان، فيشير إلى الفيلسوف الفرنسي باشلار (Bachelard) الذي يقول: «نحن نظنّ أنّنا نعرف أنفسنا بينما كلّ ما نعرفه هو تعاقب إشارات ثابتة في أمكنة مستقرّة. والذكريات هي نفي الحركة، وهي بمقدار ما تكون أشدّ ثباتاً في المكان، تغدو أوضح وأصدق صُوراً». ثمّ يشير إلى قول الفيلسوف الألماني هايدجر (Heidegger): «يحتوي المكان على زمن مضغوط، وتلك هي وظيفته». ولتوضيح بُعدٍ آخر لتَغَيُّر معنى الزَّمن في العصر الحديث، يشير هارفي (Harvey) إلى أنّ «اللّحظات» هي «عناصر الربح»، وبالتالي، فإنّ السيطرة على زمن عمل الآخرين هي التي تعطي الرأسماليّين القدرة الأوّلية على امتلاك الربح لحسابهم، والصراعات بين أصحاب قوّة العمل وأصحاب

(18) Yves Citton, *Pour une écologie de l'attention*, (Paris, éd. Seuil. 2014), p.96
(19) Ibid, p.206

الرأسمال على استخدام الزَّمن وشدّة العمل كانت باستمرار مَرَضاً مُستوطِناً[20]. وهذا ما يَدَعُنا جميعاً، أكاديميّين وطلّاباً، أمام تحدّي بناء زمننا بطريقة مُنتِجة وفعّالة، بمعزل عن ضغوط الإيقاع السريع التي تُدخلنا في دوّامة من التوتّر والقلق، وتعيق بالتالي أيّ محاولة لتطوير أدائنا، والذهاب أبعد ممّا هو مرسوم لنا.

المصادر والمراجع

- عوطة. روجيه، **أشباح «سناب شات» وقد انتزعوا حقهم في النسيان**، موقع المُدن الإلكتروني، مُتاح على: moc.nodomla.www تاريخ 22/ 12/ 2015
- فرغلي. إبراهيم، **ثورة الزَّمن: الثورات العربية الموازية في الفضاء الافتراضي**، (مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية 2014)، ص 21.
- Citton. Yves, *Pour une écologie de l'attention*, Paris: éd. Seuil, 2014.
- Doueihi. Milad, «L'identité à l'ère des Digital Humanities», *Les essentiels d'Hermès*, 2014.
- Lachance. Jocelyn, *L'adolescence hypermoderne - le nouveau rapport au temps des jeunes*, Presses de l'Université Laval, collection sociologie au coin de la rue, Québec, 2011.
- Lits. Marc, «Temps et médias: un vieux couple dans des habits neufs». *Recherches en communication*, numéro 3, (1995).
- Normand Baillargeon (direction), *Posteface de Marc Laurendeau*, «Mutations de l'univers médiatique», Québec: *M* éditeur (2014).
- Parmentier. Marc, «Philosophie des sites de rencontres», *Les essentiels d'Hermès,* **Revue Hermès**, numéro 59, (2011).
- Philippe Breton, *L'incompétence Démocratique, La crise de la*

(20) إبراهيم فرغلي، **ثورة الزَّمن : الثورات العربيّة الموازية في الفضاء الافتراضي** ، (مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية. 2014)، ص 21.

parole aux sources du malaise, dans la politique, Paris :éd. La Découverte, 2006.

- Rognetta. Jean, Jammot. Julie, Tardy. Frederic, *La république des réseaux - périls et promesses de la révolution numérique*, Paris : éd. Fayard, 2012.